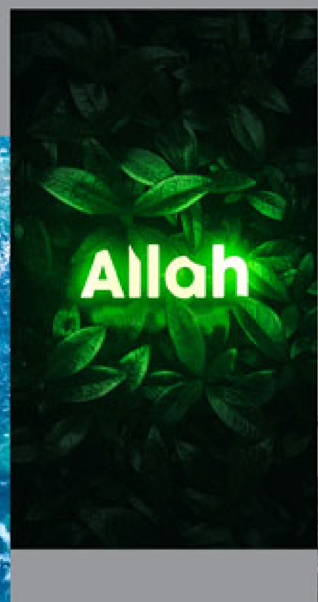
١٠

العقوبات والآيات والسنن

111 قاعدة لفهمها والتعامل معها












العقوبات والآيات والسنن

العقوبات والآيات والسنن

١١١ قاعدة في فهمها والتعامل معها

د. جمال بن فضل الحوشبي

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م


بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله جلّ جلاله:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٦-٩٨].

المحتويات

أولاً: قواعد للتعرف على عظمة الله تعالى، والحِكم التي أجراها للمجازاة والمصير.	١٣
ثانيـًا: قواعد للتعرف على جنود الله تعالى في السماوات والأرض.	٣٧
ثالثـًا: قواعد لمعرفة سنن الله تعالى المتعلقة بحركة الأفراد والمجتمعات.	٦٥
رابعـًا: قواعد للتعرف على (الآيات) التي يرسلها الحقّ جلّ جلاله تذكيراً وإعذاراً لمن خالف أمره.	٩٩
خامسـًا: قواعد لمعرفة العقوبات التي تحقّ بالمجرمين جراء مخالفتهم أمر ربّهم.	١٢١
سادسـًا: قواعد للتعريف بالعقوبات التي اختصّ الله تعالى بها المسلمين عند انحرافهم عن أمر ربهم.	١٥١
سابعًا: قواعد للتعرف على أسباب تنزل العقوبات بالأفراد والجماعات.	١٧١
ثامنـًا: قواعد لمعرفة موانع العقوبات، وطرق الوقاية منها أو التعامل معها حال ظهورها.	٢٠٣

المقدمة

الحمد لله الذي ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ ووسع ﴿كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، وصلى الله وسلم على صفوة خلقه، وأكرم رسله، القائل فيما أمره ربّه: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[الجن: ٢٢]، وعلى آله وصحبه،

أما بعد:

فقد شهدت البشرية في هذا القرن من الكوارث البيئية، والحروب العالمية المدمرة، والأزمات الاقتصادية، والأوبئة الصحيّة ما لم تشهده في حقبة غيرها؛ ففيها وقعت أكثر الصراعات العسكرية دموية على مرّ التاريخ؛ حيث بلغ عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية أكثر من ٧٥ مليون قتيل و٥٠ مليون جريح، ومن قبلها ذهب أكثر من ٣٧ مليوناً بين قتيل وجريح في الحرب العالمية الأولى. ولم يستفق العالم من هذه الفواجع إلا على تتابع وتيرة الفيضانات، والأعاصير، والزلازل، والأوبئة الفتاكة بدرجة مخيفة لا تقل نتائجها وآثارها عن أشد الحروب شراسة[1]؛ مما يستوجب النظر والاعتبار،

(١) تشير إحصائيات القتلى بسبب الكوارث الكونية في عام ٢٠٠١ م إلى أكثر من ٢٥ ألف قتيل، ثم ارتفعت حصيلة من هلك بعدها ليصل بسبب إعصار واحد، هو إعصار نرجس، الذي ضرب بورما عام ٢٠٠٧ م إلى ما لا يقل عن ٧٥ ألف قتيل و٥٤ ألف مفقود. ولم يستفق العالم من هول الصدمة بعد أسبوعين إلا على آثار كارثة كونية أخرى هي زلزال (سشوان) جنوب غرب الصين الذي خلّف ما لا يقل عن ٣٥ ألف قتيل و ٤٠ ألف جريح، وشرّد أكثر من خمسة ملايين نسمة، وأعاد للأذهان كارثة (تسونامي) الذي ضرب جنوب

والبحث عن أسباب الوقاية والعلاج، وأهمها: التعرف على سنن الله تعالى في الكون، والأنفس، والمجتمعات، والآيات والعقوبات المرتبطة بها.

إنّ ما يحدث اليوم في العالم مؤذن بتغيرات كونية، وتقلّبات لا مثيل لها، يعاني منها البشر جميعاً على اختلاف أجناسهم، ولغاتهم، وأديانهم؛ ذلك أنّ الهلاك العام، والعقوبات التي تحلّ بالبشر، والكوارث الكونية، والأزمات الكبرى لا تستثني أحداً، وهي عواقب وخيمة تحلّ جراء الفساد الذي يحدثه البشر أنفسهم، ونتيجة حتمية لظلمهم، وتمرّدهم على أوامر خالقهم، وانتهاكهم حرماته، قال الله جلّ جلاله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. وأعظم صور الإفساد على الإطلاق: ظهور الكفر، وتفشّي الإلحاد، والصدّ عن سبيل الله تعالى، وكفّ أيدي العلماء والمصلحين، والآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، مع المجاهرة بالتمرد على أوامر الله تعالى وشرعه، وانتهاك حرماته.

والكون من حولنا شاهد على حكمة الله جلّ جلاله، وعظمته، وقهره؛ فقد أوجده سبحانه وفق نظام دقيق لا يتغير، وسنن ثابتة لا تتبدّل، تحدّد بمجموعها البقاء، أو الفناء، والقوة، أو الضعف للجنس البشري، في البقعة المكانية، والمدة الزمنية التي تسري عليها تلك السنن الربانية.

شرق آسيا عام ٢٠٠٤م ووصلت قوته إلى سواحل الصومال وحصد ما لا يقل عن ٢,٢٧٩,٩٠٠ قتيل و١,٢٥٠,٠٠٠ جريح. وتتابعت بعدها وتيرة الأعاصير والفيضانات العالمية؛ كإعصار ساندي في أمريكا عام ٢٠١٢م الذي بلغت خسائره خمسة مليارات دولار، ومن بعده فيضان (نيو أورليانز) وإعصار (كاترينا)، (وإيدا) وسلسلة طويلة يصعب حصرها.

والأصل في الوقاية من العقوبات العامّة التي توعّد الله تعالى بها البشر عموماً، والمسلمين خصوصاً حال انحرافهم قوله سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]. وهذه الآية على إيجازها تضمنت ثلاثة أصول مهمة.

والرّاجح فيها أنها عامة لجميع الأمّة، في كل زمان ومكان، قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر الله المؤمنين في هذه الآية ألا يُقرّوا المنكر بين أظهرهم فيَعمّهم الله بالعذاب. وقال مجاهد: هذه الآية لكم أيضاً[١]. وقال ابن تيمية رحمه الله: هذه الفتنةُ لا تصيب الظالم فقط، بل تصيب الظالم والساكت عن نهيه عن الظلم كما قال النبي ﷺ: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمّهم الله بعقاب منه»[٢]. وصار ذلك سببا لمنعهم كثيرا من الطيبات[٣].

وليس بين الله تعالى وبين خلقه عهد أمان لذواتهم، ولا لأحسابهم ولا لأوطانهم، إنما هو الإيمان والعمل الصالح؛ فما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة، كما يقول العباس رضي الله عنه[٤].

(١) زاد المسير، (٣/ ٣٤١).

(٢) جامع الترمذي، (٤/ ٤٦٧). وقال الألباني: صحيح.

(٣) مجموع الفتاوى، (١٤/ ١٥٨).

(٤) لمّا استسقى عمر بالعباس رضي الله عنهما رفع يديه وقال: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يُكشف إلا بتوبة، وقد توجّه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث». فأرخت السماء مثل الحبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس. (فتح الباري، ٢/ ٣٩٧).

والعقوبات العامة لها ثلاث مراحل يجب معرفتها والحذر منها: مقدّمات، وتفاعلات، وآثار. والمعرفة الحقيقية بها تتطلب: إدراك القوانين والسنن الإلهية التي تنظّم حركة الكون والأفراد، وتنزيلها بعد ذلك على واقع الناس، وهي مهمّة حساسة لا يقوم بها إلا من جمع العلم الشرعي بهذا الفن، واستقرأ حركة المجتمعات وتاريخ الدول، وما يصحبها من تقلبات كونية ومناخية، وصراعات بشرية، وأوبئة فتاكة تظهر بين الحين والآخر.

والمسلمون ـ وبخاصة أهل الاختصاص منهم ـ أولى الناس وأحراهم بصرف الاهتمام لما يجري على كوكب الأرض، والخروج بدراسات علمية، وبرامج إعلامية تبين الأسباب، والآثار، وطرق الوقاية والعلاج، وبخاصة بعدما فشى الطرح المادي وانشغل الناس عن المقصد الأكبر لإرسال الآيات بأدوات الرّصد، وتقديرات الأجهزة المادية التي تحدد توقيت ظهور الكوارث، والخسوفات، والفيضانات وآثارها المحتملة، حتى أصبحت الآيات التي يخوّف الله تعالى بها عباده، مجرّد تغيّر مناخي، واحتباس حراري مرتبط بطبقة الأوزون، جراء الانبعاثات الكربونية التي تنطلق في الجو!!

وعلم (الآيات والعقوبات والسنن) علم أصيل منثور في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، تناوله علماء الإسلام بالبحث والتصنيف في مسائل متفرّقة، وهو من أشرف العلوم المعاصرة، وأكثرها إلحاحاً، وأشدها ضرورة لكلا الطرفين: الباحثين الذين يتناولون الظواهر الكونية، والاجتماعية، لتفسير أسباب حدوثها، والبحث عن إجابات دقيقة لكيفية الوقاية منها، وصنّاع

القرار المعنيين بالتخطيط الاستراتيجي لمستقبل دولهم، واستشراف المخاطر التي تواجهها.

والمنهج القرآني في تناول الكوارث النازلة أرقى وأرفع بكثير من المنهج المادي المعاصر؛ حيث لا يقف طويلاً عند مجرد الوصف، ولا يشغل الناس بتفاصيل المشاهدات، والأرقام، والنِّسب، والإحصاءات، بل يتجاوزها إلى المقصد الحقيقي، والهدف الرئيس؛ بالتركيز على أسباب وقوع تلك الكوارث، مع تقديم الطرق والخطوات العملية للوقاية منها في المستقبل.

وهذا الكتاب يسعى لتلبية نسبة ضئيلة من الحاجة في هذا الفن، عبر تزويد المكتبة الإسلامية بدراسة مختصرة تجمع شتات المتفرقات، وتعرض لجملة من المسائل المهمة في هذا الموضوع، كما يهدف إلى بيان عظمة الله جلّ جلاله، ورحمته وقهره لمخلوقاته، ويوثّق الصلة بين الآيات الكونية والسنن الربانية، مؤكّدا على أنّ كل عقوبة نازلة سببها مخالفة قائمة، وأنّ الهلاك العام مقترن بالظلم والاستكبار، والغفلة عن الاعتبار بالآيات والمَثُلات. وأقسامه تجري على نسق الترتيب المنطقي لتغطي ثمانية مباحث:

١- عظمة الله تعالى ورحمته التي وسعت جميع خلقه.

٢- جنود الله جلّ جلاله في السماوات والأرض.

٣- سنن الله تعالى المتعلقة بحركة الأفراد والمجتمعات.

٤- التعريف (بالآيات) التي يرسلها الحقّ جلّ جلاله تذكيراً وإعذاراً لمن خالف أمره.

٥- العقوبات التي تحقّ بالمجرمين جراء مخالفتهم أمر ربّهم.

٦- العقوبات التي اختصّ الله تعالى بها المسلمين عند انحرافهم.

٧- أسباب تنزل العقوبات بالأفراد والجماعات.

٨- موانع العقوبات، وطرق الوقاية منها أو التعامل معها حال ظهورها.

أسأل الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وسببًا لرفعة الدرجات في جنّات النّعيم، وينفع به عموم المسلمين، وأن يدّخره ذخراً من صالح العمل بعد انقطاع الأجل: لي، ولوالديّ، وذُريتي، وكلّ من قرأه وانتفع به، إنّه سبحانه نعم المولى ونعم النصير، وهو حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

قُيدت سطوره الأولى ضحى يوم الجمعة الثاني عشر من صفر لعام ١٤٢٥هـ في المسجد الحرام، وتم الفراغ من تهذيبه في المسجد النبوي يوم عرفة لعام ١٤٣٧هـ، وبعد صلاة الجمعة من يوم عرفة لعام ١٤٤٣هـ في بلد الله الحرام تم الانتهاء من تهذيبه للطباعة، ولله وحده الفضل والمنّة أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

أولاً:

قواعد للتعرف على عظمة الله تعالى، ورحمته التي وسعت جميع خلقه، وآثار قدرته وقهره، والحِكم التي أجراها للمجازاة على ذنوب الاستحقاق في الدنيا.

١. علاقة الرب جلّ جلاله مع خلقه قائمة في أصلها على (الإحسان).

بخلاف ما يروّج له الملحدون والليبراليون والعلمانيون حول علاقة الفرد بخالقه يؤكد الرّب جلّ جلاله بأنّ علاقته مع خلقه قائمة في أصلها على الإحسان، وأنّ الإنعام مفتاح الوصول لمعرفته سبحانه والتعبّد له. وفي هذا السياق يجب أن تصحح كل نظرة تتعلق بأفعال الله جلّ جلاله، وصفاته المتعلقة بخلقه؛ فهو الرّحيم المُنعم على عباده في الحقيقة، وهو المُعطي النافع، الجواد المُحسن، الذي أنعم على بني آدم بنعمة الخلق والإيجاد، ثم أنعم عليهم بنعمة الهداية والإرشاد، وفطر قلوبهم وإراداتهم على طلب ما ينفعهم، وحبّبه إليهم، وعلى ترك ما يضرّهم، وبغّضه إليهم، ثم أرسل لهم الرسل، وأنزل الشرائع، وقهرهم على طلب منافعهم الدنيوية التي بها قوام معاشهم، ومنافعهم الأخروية التي بها صلاح معادهم.

وأعظم مدخل للتعرّف على الله جلّ جلاله في هذا العصر ـ وفي كلّ عصر ـ إنّما يكون بالنظر في إنعامه وإفضاله، وبالمنافع التي يسوقها للإنسان، والتي بها يَتعبّد له فيشكُر، أو يَجحد فيكفُر، قال سبحانه مؤكداً هذه الحقيقة: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]، فأخبر أنه المتفضل على عباده بإنعامه، وأنّ خيره يعمّ البشر أجمعين، على اختلاف عقائدهم وألوانهم، وأجناسهم وأوطانهم، فهو الذي يحفظهم في أبدانهم، ويوسّع لهم في أرزاقهم، وهو الذي يوصل إليهم ما ينفعهم برحمته، ويحجب عنهم ما يضرّهم بلطفه وحكمته، وهو الذي يُعطيهم ما سألوه

تفضلاً منه وإحسانًا، ولم يبق له منهم إلا شكره على كريم إنعامه وسعة عطائه، جلّ شأنه.

والحديث بعد ذلك عمّا يُنزله جلّ جلاله بالمجرمين والمخالفين من عقوبات شرعية أو كونية كالحديث عمّا ينزّله من إنعامه وعطائه الذي وسع البشر أجمعين، سواء بسواء، ولا يخرج أحد منهما عن كريم إحسانه جلّ جلاله، وإرادته الخير لعباده، إضافة لما في تلك العقوبات الشرعية والكونية من المنافع الدينية والدنيوية التي لا تخفى، كما سيأتي بإذن الله تعالى.

٢. من لطف الله بعباده: سوق المنافع إليهم رغم انحرافهم.

الله تعالى لطيف بعباده، يرعاهم، ويرحمهم، ويحفظ مصالحهم. وهو الحليم الذي لا تحمله زلات العصاة على استعجال عقوبتهم مع غاية الاقتدار عليهم، العليم بدقائق الأمور وخفيّاتها، والمحسن إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف[١]. ولأنّ لطفه بعباده جلّ جلاله لطف حكمة وعلم، وخبرة فقد ورد اسم (اللطيف) في القرآن الكريم سبع مرات مقترنًا في بعضها باسم (الخبير)، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[المُلك:١٤].

ومن لطفه سبحانه: تهيئة مصالح عباده من حيث لا يحتسبون، وجلب النفع لهم من حيث لا يعلمون. وهو ذو الصفح والأناة جلّ جلاله، المُنعم النافع الذي يهيئ مصالح خلقه من حيث لا يحتسبون، ويرزقهم من حيث لا

(١) سلاح المؤمن في الدعاء، (ج١/ ص٢٦١).

يشعرون. ومن دلائل رحمته العامّة التي وسعت كل شيء: إمهاله جلّ جلاله للظالمين على كثرة ذنوبهم، وعدم مؤاخذتهم حال معصيتهم حتى يجاهروا بها، أو تجتمع فيهم أسباب نزول العقوبات العاجلة.

ومن لطفه وإنعامه جلّ شأنه: سعة الخلق والإيجاد؛ فخلقه وإيجاده وسع جميع خلقه، وعطاؤه متجدد، يشمل جميع مخلوقاته، والأرض التي يتنقلون فيها واسعة، ممتدة بسهولها، وجبالها، وبحارها، وأنهارها. والسماء من فوقهم ممتدة بفضائها، وكواكبها، وبالغيث العميم الذي يتنزّل منها. والكون مُذلّل منقاد لبني آدم، والخيرات التي يغدق الله بها عليهم عميمةٌ لا حدّ لها، وهي متنوعة متجدّدة بطعومها، ومذاقاتها، وأحجامها، وألوانها، بغير كسب ولا تدخّل من الإنسان، والمنافع التي يسوقها الكريم سبحانه لعباده ظاهرة وباطنة، وهي مُتاحة ممنوحة غير ممنوعة، وتحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة، وبها تتحقق لذاتهم الحسيّة التي تُباشر تلك المنافع طلباً واستمتاعا، ولذاتهم العقلية التي تخطط لها، وتدبّر طرق الوصول إليها، والاستمتاع بها، إضافة للّذّات التخيّلية التي تفتح لهم مساحة أرحب من الاستمتاع، وتجعلهم دائمي الصلة بأكرم دار تجتمع فيها تلك المنافع واللذات، ولا تخطر لذّاتها على قلب بشر.

٣. حديث الآيات والسنن لا يخرج عن علم الله وحكمته وإرادته.

لا يخرج شيء في ملك الله جلّ جلاله عن علمه وإرادته، ومشيئته وحكمته. وهذه هي الغاية الثالثة ـ بعد القهر والإحسان ـ وبها يتعرف العبد على خالقه؛ فما شاء الله تعالى كان، وما لم يشأ لم يكن. وكما أنّه سبحانه (قهّار) وفعّال لما يريد فهو سبحانه (حكيم خبير) يضع الأمور في نصابها، ويقضي بها وفق سابق علمه بحال أصحابها؛ فينزّل هاهنا بمقدار، ويمنع ما هنا بمقدار، يعُطي برحمته، ويمنع بحكمته: «لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام. يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عملُ الليل قبلَ عمل النهار، وعملُ النّهار قبل عمل الليل، حجابه النّور، لو كشفه لا حرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1]. وهو جلّ جلاله كما قال ممجداً نفسه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٧].

وجميع الآيات، والعقوبات، والسنن، وصور الإنعام الظاهرة، والباطنة تسير وفق علمه، وإرادته، وحكمته جلّ جلاله، وتقدّست أسماؤه، ولا تخرج عنها طرفة عين. ولو أنّ صاعقة أُرسِلت فأصابت مكاناً آهلاً بعينه من بين الأمكنة، أو سيارة أو طائرة من بين عشرات بل مئات المركبات، ولو أنّ وباء أُرسِل فكان على أرض مناعةً وحصانة، وعلى أرض تجاورها:

(١) أخرجه الإمام مسلم، (١/ ١٦١) عن أبي موسى رضي الله عنه.

عذابـاً وهـلاكـاً، ولـو أن سـحاباً أرسـل على هـذه المدينـة أو الدولـة غيثـاً يحـلّ معـه النمـاء والرّغـد، ثـم يجـوز فـوق مدينـة أو دولـة بقربهـا نـزل بهـا الجـدب والقحط، ولـو أنّ فيضانـاً اكتسح اليابسـة، ودمّـر كلّ شيء في طريقـه إلا مسجداً أو منزلاً، لـو أنّ ذلـك حـدث، ولا يُـدرك النـاس السبب فاعلـم أنّ الله تعالـى في كل ذلـك علـم أزلـي بمـن أبقـى ومـن أفنـى، وفـق مـا قـدّره سبحانه وكتبـه، ولا يخـرج منهـا شيء عـن إرادتـه القاهـرة، وحكمتـه البالغـة، ومشيئته النافـذة. قـال الله جـلّ جلالـه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعـد: ١٣]. قـال السـعدي رحمـه الله: الرّعـد: هـو الصـوت الـذي يُسـمع مـن السـحاب المزعـج للعبـاد، فهـو خاضـع لربـه مسـبّح بحمـده، وتسـبّح الملائكـة ﴿ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ أي: خشّـعاً لربّهـم، خائفيـن مـن سـطوته، ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ ﴾ وهـي هـذه النـار التي تخـرج مـن السـحاب، ﴿ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ مـن عبـاده، بحسـب مـا شـاءه وأراده، ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ أي: شـديد الحـول والقـوة، فـلا يريـد شـيئاً إلا فعلـه، ولا يتعاصـى عليـه شـيء ولا يفوتـه هـارب. فـإذا كان هـو وحـده الـذي يسـوق للعبـاد الأمطـار والسـحب التي فيهـا مـادّة أرزاقهـم، وهـو الـذي يدبّـر الأمـور، وتخضـع لـه المخلوقـات العِظـام التي يُخـاف منهـا، وتُزعـج العبـاد وهـو شـديد القـوة؛ فهـو الـذي يسـتحق أن يُعبـد وحـده لا شـريك لـه[١].

(١) تفسير السعدي، (ص: ٤١٤).

والإيمان بحكمة الله تعالى وإرادته يتطلّب الاعتقاد كذلك بجريان تلك الحكمة في كل ما يقضي على خلقه، وأنّ بالإمكان رصد بعض آثارها والاستدلال عليها في نظام الكون الدقيق من حولنا، ولو أنّ المتخصصين في علوم الطبيعة من المسلمين تفرغوا للدراسات (العلمية المقارنَة) التي ترصد الظواهر، والآثار، والتفاعلات المصاحبة للكوارث الكونية لخرجوا بنتائج فريدة تنفي وجود المصادفة، أو العبثية والعشوائية التي لا يملك علماء الطبيعة لها تفسيراً مادياً معروفاً، بينما تسير وفق إرادة (العليم الخبير) وحكمته جلّ جلاله. ومن أمثلتها دراسة علمية مقارنة نشرتها مجلة ديسكفر (Discover magazine) وتتناول ظاهرة غريبة تباينت آراء المحللين حول تفسير أسبابها، تتمثل في قلة حدوث الكوارث، وبخاصة (الصواعق) أثناء الحظر والإغلاق العالمي بسبب فيروس كورونا عام ٢٠٢١م ورصدت الدراسة عدد مرات أقل للبرق أثناء الحظر العالمي، مقارنة بالتوقيت نفسه في الأعوام الماضية[١].

٤. ليس لله حاجة في تعذيب أحد من خلقه.

أخبر الله تعالى عن رحمته الواسعة التي شملت جميع مخلوقاته، ورحمته الخاصة التي كتبها للمتقين من عباده، فقال جل شأنه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[الفاتحة:٢-٣]، وهذان الاسمان الشريفان ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دالان على رحمة الله التي وسعت كل شيء.. رحمته العامّة المطلقة

(١) نشرت الدراسة العلمية بالإنجليزية في موقع المجلة بتاريخ: ١٧ مارس ٢٠٢٢ على الرابط https: //**cutt. us/IQLPU**

التي عمّت كلّ حي، ورحمته الخاصة التي كتبها للمتقين من عباده. وقال سبحانه: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، عن الحسن وقتادة في قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ قالا: وسعت في الدنيا البَرّ والفاجر، وهي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة[١]. قال بعضهم: لمّا قال الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ طمع فيها كلّ أحد حتى إبليس، فلما قال: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يئس لعنه الله، وبقيت اليهود والنصارى[٢].

ومن آثار رحمة الله تعالى الواسعة: إيصال المنافع والبركات حتى للكافرين، فبها يغذوهم، ويسترهم، ويحفظهم من الآفات، ولا يعاجلهم بالعقوبة رغم كفرهم، قال جلّ شأنه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]

٥. الله تعالى منزّه عن الظلم فيما يقضي به على عباده.

العقوبات العامة المُرسلة على البشر ينزّلها الله تعالى وفق ميزان العدل الذي ينافي الظلم، والحكمة التي تنافي العبث، والقدرة التي تنافي العجز. ومن تأمل نصوص إنزال العقوبات يجد أنها كثيراً ما تقترن بتنزيه الله تعالى

(١) الدر المنثور، (٣/ ٥٧١).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، (ج٢/ ص٤٧).

عن الظلم من جهة، وإثبات استحقاق المعذَبين لما نزل بهم من جهة أخرى، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٠-١٠٢]. وقال جل شأنه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[هود: ٣٦-٣٧].

ويسري ميزان العدل والحكمة على أنواع العقوبات كلها، حتى تلك التي يحصل بسببها منع الطيبات، وظهور الأوبئة، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، ولا ينقطع السياق عن التعقيب برحمة الله تعالى للمنيبين وتجاوزه عن الأوابين التائبين، قال جلّ شأنه وتقدست عظمته: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١١٨ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ١١٨-١١٩].

ورحمة الله تعالى سبقت غضبه جلّ جلاله، ومن رحمة الله سبحانه: أنه لا يؤاخذ المجرمين بذنوبهم من أول مرة، ولا يرفع كنف ستره، ولا يقطع رزقه عنهم، بل يمهلهم، ويمتّعهم، ويظهر لهم فيض كرمه، ويغدق عليهم من جود فضله، ليعرفوا حقه، ويشكروا نعمته. قال الله جلّ شأنه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[النساء: ١٤٧]. وقال

تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما قضى الله الخلق كتب كتابا فهو عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي». وفي رواية: «غلبت غضبي»[(١)].

وبهذه الرحمة الشاملة لربنا جلّ شأنه يمجده الملأ الأعلى، ويثنون عليه، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

٦. من رحمته سبحانه: عدم استجابته لدعاء عبده بهلاك نفسه وولده.

من آثار الرحمة العامّة لربنا جلّ جلاله: أنه لا يعجّل العقوبة على كلّ ذنب، ولا يستجيب أيّ دعاء بإنزال المحق والفناء على النفس والولد، ما لم يوافق ذلك ساعة إجابة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١]. والمراد به الرجل يدعو على نفسه وأهله في وقت الغضب من

(١) متفق عليه.

غير إرادة منه لذلك، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأهلك من دعا عليه، ولكن لرحمته سبحانه لّما علم أن الحامل له على ذلك سُكر الغضب لا يجيب دعاءه. قال مجاهد: هو الواصل لأهله وولده وماله إذا غضب عليهم قال: اللهم لا تبارك فيهم، اللهم العنهم، فلو عجّل الله له ذلك لأهلك من دعا عليه فأماته[1]. عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله تبارك وتعالى ساعة نيل فيها عطاء، فيستجيب لكم»[2].

٧. الله تعالى يفرح بتوبة عباده.

من سعة رحمة الله سبحانه: قربه من المسرفين حتى في أشد حالات الكفر والظلم، وبسط يده بالرحمة للتائبين في كل لحظة، وتنزّله كلّ ليلة بنداءاته الكريمة لعباده. عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله في كل ليلة إلى سماء الدنيا، فيقول: «هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر»[3].

ولك أن تعجب من سعة رحمة ربنا جلّ جلاله بالمجرمين الذين كفروا به، وقتلوا أولياءه؛ كيف يرغّبهم بالإنابة، ويعدهم قَبول التوبة والإثابة،

(١) جامع العلوم والحكم، (ج١/ ص١٤٩).
(٢) سنن أبي داود، (٢/ ٨٨). قال الألباني: حديث صحيح.
(٣) رواه الإمام أحمد والنسائي، وهو في صحيح الجامع، (حديث رقم: ٨١٦٧).

رغم عظيم الجرم الذي اقترفوه، قال سبحانه في حق أصحاب الأخدود: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾[البروج: ٦-٩]. وقال سبحانه في حق المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١٤٦]، وقال جلّ جلاله في حقّ المشركين: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:١٠-١١]. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد كُسرت رَبَاعية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشُجّ، فجعل الدمُ يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: كيف يُفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله؟! «، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، والمعنى: ليس إليك يا محمد من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري، وتنتهيَ فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إليّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم وأحكمُ بالذي أشاء[1].

---

(١) تفسير الطبري، (٧/ ١٩٤). والحديث في سنن أبي ماجه، (١/ ١٣٣٦) وصححه الألباني.

٨. يقبل الله تعالى توبة التائبين وإن ملأوا الأرض كفراً وظلماً.

أخبر الله تعالى عن أثر كريم من آثار رحمته التي شملت جميع خلقه ألا وهو: قبول توبة التائبين من عباده، وغفران جميع ذنوبهم. قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[الأنفال: ٣٨]. والأعجب من غفران الذنوب السابقة: تبديلها حسنات تثقل بها موازين أصحابها يوم القيامة!! قال جلّ شأنه، وتعاظم بِرُّه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان:٦٨-٧٠]. عن أنس بن مالك ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني؛ غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني؛ غفرت لك ولا أبالي، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا؛ لأتيتك بقرابها مغفرة»[١].

فيا لها من مقابلة إحسان، وميزان تفضل وإنعام يوازن بين عظم الذنب من المجرمين التائبين، وسعة المغفرة من الرب الرحيم جل جلاله! وممن تعاظم عنده شأن الذنب وسابق الإجرام: أبو ذر﵁ الذي قال: أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض، وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: «ما من عبد قال:

(١) جامع الترمذي، (٥/ ٥٤٨). قال الألباني: حديث صحيح.

لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة»، قلت: وإن زنى، وإن سرق؟ قال: «وإن زنى، وإن سرق»قلت: وإن زنى، وإن سرق؟ قال: «وإن زنى، وإن سرق»، قلت: وإن زنى، وإن سرق؟ قال: «وإن زنى، وإن سرق.. على رغم أنف أبي ذر» وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال: وإن رغم أنف أبي ذر[١].

٩. كثيراً ما يغترّ المجرمون بإمهال الله تعالى وسعة حلمه.

العجيب في شأن رحمة الله تعالى العامة التي وسعت كل شيء أنها قد تتحول إلى فتنة لأولئك المجرمين، فيغترون ـ لفرط غفلتهم ـ ببقاء أرزاقهم، ودوام عافيتهم! ويستدلون على صحة باطلهم، وتبرير انحرافهم بدوام عيشهم، واستمرار مكاسبهم، بل نمائها وزيادتها! إذ كيف يتفق ـ في نظرهم ـ أن يكونوا بهذه القوة والرّفاه لو أنّ الفسادَ صاحب معتقدهم، والانحرافَ خالط منهجهم!! ؟ وهذا من تلبيس الشيطان، وطمس البصائر، والطبع على القلوب، وإلا فكيف يصح أن يجعل العبدُ ما حقُّه الشكر من هذه النعم سبباً للكفران، وطريقاً للعتو والاستكبار؟ قال الله تعالى مخبراً عن هذا المنطق السقيم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ١٥].

ويصل السفه ببعض المجرمين إلى حد التأكيد على ضلال من يُنكر عليهم، أو ينتقد مذهبهم، كما في قول الملأ من قوم نوح لنبيهم بعدما

---

(١) متفق عليه.

أكثر عليهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأعراف: ٦٠]. وتأكيد البعض الآخر بسلامتهم من العقاب، بقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ [البقرة: ٨٠]. ومن فساد منطقهم، وغلبة الحمق والسفه على أحلامهم: إعلان التحدّي في وجه المصلحين الذين يخوفونهم عذاب ربهم وسطوته، ورفع أيديهم إلى السماء قائلين: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]. فتأمّل كيف تعطلت عندهم أدوات التفكير السليم بعدما طُمس على بصائرهم، وطُبع على قلوبهم، ليصبح منطق التحدي عندهم بهذا الغباء: اللهم إن كان ما يقوله هؤلاء المصلحون هو الحق من عندك فعاجلنا بالعقوبة!!

١٠. جريان الآيات والسنن أثر من آثار عظمة (الواحد القهّار) جلّ جلاله.

الحديث عن سُنن الله تعالى في خلقه، وعن آياته التي يُرسلها، وعقوباته التي يُنزلها حديثٌ عن تجلّيات آثار أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى؛ فإذا رأيت دولة كانت بالأمس قاهرة لما حولها، متصرّفة بشؤونها، معتدّة بقوتها، ثم أصبحت بعد زلزال لا يتجاوز خمسين ثانية، أو فيضان ارتفع بمقدار مترين أو ثلاثة دولة ذليلةً، منكسرةً، تستجدي المعونات ممن حولها، وإذا رأيت مساكن فارهة، وقلاعـاً مشيّدة وقد أصبحت ركامـاً خَربةً بعد نزول صاعقة أو انجلاء عاصفة، وإذا رأيت عاجزاً في غرفة الإنعاش قد ذهبت عنه كلّ حيلة، وأيس منه كلّ طبيب، وإذا رأيت طائرة عظيمة في سمائها، أو باخرة ضخمة في بحرها قد احتوشتها الرياح، وتلاطمتها الأمواج فأصبحت

كدميةٍ من ورق، لا حول لأهلها ولا قوة.. إذا رأيت ذلك كله فتذكّر اسم الله (القهّار) الذي خضع لقدرته وعظمته كل شيء، وذلّ لجبروته وقوته كل شيء، ولا يخرج حيّ ولا جماد عن ملكه وإرادته وتدبيره، جلّ جلاله وتقدست أسماؤه.

وهذا الاقتران بين (القهر والوحدانية) مما يمكن إدراكه بالوحي وبالعقل معـًا. ولو لم يصف الله جلّ جلاله نفسه بأنه (الواحد القهار) في ستّ مواضع من كتابه العزيز لدلّ على ذلك الحسّ وأرشد إليه العقل الصحيح؛ فإنّ الوحدانية ثمرة لذلك القهر وقرينة له، وكما أنّ الذي خضع له كل الخلق، على اختلاف أجناسهم، ولغاتهم، وأوطانهم لا بد وأن يكون (قهّاراً) فإنه لا بد وأن يكون كذلك (واحداً) فرداً صمداً، متفرّداً بخلقه، لا يخرج أحد عن أمره، تصمد إليه جميع الخلائق لقضاء حوائجها، وهو مستغن عن الظهير والمعين، قال تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦]. وهذا الاقتران يشير إلى معنى بديع: وهو أن الذي يحقّ له أن يقهر كلّ الخلق، على اختلاف أجناسهم، ولغاتهم، وأوطانهم لا بدّ وأن يكون: واحداً فرداً صمداً، متفرّداً بخلقه، لا منازع له.

والبشر كلّهم ـ مسلمهم وكافرهم ـ يُدركون بأنّ الواحد لا يكون إلا قهارًا، والقهّار لا يكون إلا واحدًا، وذلك ينفي كل شرك، وهذا ما تضمّنته آيات الكتاب العزيز ـ لو تدبّرته ـ فإنّ كلّ سياق لمظاهر عظمة الخالق وقدرته يأتي دائمـًا في سياق التشريف والتكريم بالعبودية والأمر بالوحدانية؛ فهو قهر رحمة

وكرامة يقود إلى كنف الأمن والسلامة في ظلّ العبودية لله وحده لا شريك له، كما في قوله جل جلاله: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٥-١٠٧]، وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد: ١٦]. قال السعدي رحمه الله: ووحدانيته تعالى وقهره متلازمان. فالواحد لا يكون إلا قهارًا، والقهّار لا يكون إلا واحدًا وذلك ينفي الشركة من كل وجه. ويقول أيضًا: فإن القهر ملازم للوحدة فلا يكون اثنان قهّاران متساويين في قهرهما أبدًا. فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يُعبد وحده كما كان قاهرًا وحده[1].

١١. الحديث عن العقوبات مقترن بصفات القوة لله جلّ جلاله.

إنزال العقوبات بالأفراد والجماعات والتهديد بها في القرآن الكريم كثيراً ما يقترن بصفات القوة والشدة والبأس لله جلّ جلاله؛ وقد وصف الله تعالى نفسه بالقوة والقدرة والقهر، كما وصف عقابه الذي يحلّ بالظالمين بأنه

(١) تفسير السعدي، (٥/ ٤١٦).

(شديد) في ثلاثة عشر موضعًا من القرآن الكريم، منها قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]، وقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

كما وصف الله تعالى نفسه القدسيّة وذاته العليّة بالقوة والشدة معًا، فقال جلّ شأنه في سياق إخباره عن إهلاك العتاة الظالمين: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢]. قال الطبري: القوي: الذي لا يغلبه غالب، ولا يرد قضاءه رادّ. ينفذُ أمرُه، ويمضي قضاؤُه في خلقه، شديد عقابه لمن كفر بآياته وجحد حُججه[1]، وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب»[2].

وهو القوي له القوى جمعًا تعالى... رب ذي الأكوان والأزمان[3]

وأخبر سبحانه عن سرعته في إيقاع العقاب بالظالمين في موضعين من الكتاب العزيز كلاهما لتأكيد المجازاة والعقوبة في الدنيا، الأول: في معرض العقوبة على كفران النعم، بقوله جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، والثاني: في سياق إخباره سبحانه عن سنته في إهلاك

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٧ - ١٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢٠.

(٣) نونية ابن القيم، (٢/ ٢١٨).

اليهود عبر التأريخ، بقوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، [الأعراف: ١٦٧].

كما وصف الله نفسه بأنه: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ في ثمان مواضع، قال جلّ جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، وأغلب سياقات هذا الوصف جاء لتأكيد المجازاة والعقوبة يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]. أي: سريع الإحصاء؛ فهو حافظ على كل عامل عمله، يحصي ذلك عليهم بغير كلفة ولا مؤونة، ولا معاناة[١]. كما وصف الله سبحانه عقابه بأنه (أليم موجع)، ومن رحمته سبحانه أن قدّم هذا الوصف لعقابه بذكر سعة مغفرته، قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

١٢. معرفة الملائكة الكرام بربهم أورثهم خشيته.

سعادة العباد في المعاش والمعاد كائنة في امتثال المقامات الأربع في تعاملهم مع ربهم وخالقهم: الحبّ له، والذُلّ بين يديه، والخوف من عقابه، والرجاء في ثوابه. وكلما عرف العبد ربّه صلحت له هذه المقامات الأربع؛ فمعرفته

(١) تفسير الطبري، (٦/ ٢٧٩).

لربّه بأسمائه وصفاته تجعله صادق التوقير له؛ فيزداد له حباً وذلاً. ومعرفته بحقّ ربّه عليه تجعله كثير الخوف منه، سريع التقرب إليه بصالح العمل؛ فإذا أحسن في عمله واستقام على هديه عظُم رجاؤه فيه، وازداد طمعه في رحمته.

وهذه المقامات الرفيعة هي مقامات عباد الله المخلصين، من الأنبياء، والمرسلين، والملائكة المقربين، الذين يخافون ربهم، ويخشون عذابه. بل تكاد الحكمة القائلة بأن (من كان بالله أعرف، كان منه أخوف) تنطبق منذ الوهلة الأولى على هذين الصنفين الكريمين من المخلوقات: الملائكة الكرام، والأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

ومن تأمل فيما أخبر الله تعالى عن ملائكته الكرام وجد ذلك جلياً في صفاتهم؛ فهم مخلوقات كريمة خلقها الله تعالى لعبادته، وطاعته، وتنفيذ أوامره.. يقومون بذلك بلا كلل ولا ملل، ولا يدركهم ما يدرك البشر من الفتور أو الانقطاع، قال الله سبحانه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]. وهم أقرب المخلوقات لربنا جلّ شأنه.. يسبّحونه، ويمجّدونه على الدوام، قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

وعلى الرغم من قرب الملائكة من ربّهم ورفيع منزلتهم، إلا أنهم شديدو التعظيم والخشية والخوف منه جلّ جلاله، والذلّ والافتقار بين يديه. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل٤٩-٥٠]، فوصفهم سبحانه بالخوف منه، وذكر لازم ذلك الخوف وهو المبادرة بطاعته، ولزوم أوامره جلّ شأنه. قال الله سبحانه في شأنهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٧-٢٨].

ولشدة معرفة الملائكة الكرام بربهم وتعظيمهم إياه اشتدّ خوفهم من عذابه، مع كونهم معصومين عن الذنوب، مجبولين على الطاعة، قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[الإسراء: ٥٧]. وقال سبحانه يصف حالهم عند سماع الوحي من ربهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ: ٢٣]. قال بن كثير رحمه الله: وهذا مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، سمع أهل السماوات كلامه، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغُشيّ[1].

(١) تفسير ابن كثير، (٦/ ٥١٤)

وقد وصف النبي ﷺ ذلّهم وخوفهم من ربّهم إذا نزل عليهم الوحي؛ فعن بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قضى ربنا عز وجل أمرا سبح له حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلى هذه السماء[1]».

١٣. الأنبياء الكرام يصرّحون بخوفهم من عذاب ربهم.

أعرف الناس بالله تعالى وأتقاهم له، وأشدهم له خشية وخوفا: أنبياؤه ورسله. ومن تأمل خطابهم لأقوامهم وجد صدق تعظيمهم لخالقهم جلّ جلاله، وخوفهم من نزول عقابه وأليم عذابه، فهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف: ٥٩]، وقال لهم ذات مرة: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾[هود: ٢٦] وقال هود عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء: ١٣٥]، وقال نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هود: ٨٤]، وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٥].

(١) جامع الترمذي، (٥/ ٣٦٢). قال الألباني: حديث صحيح.

ولم يقتصر خوف الرسل الكرام على قومهم، بل تجدهم يصرّحون بخشيتهم من ربهم، وخوفهم من عذابه إن هم خالفوا أمره، ولم يبلغوا رسالته. قال الله تعالى على لسان نبي الله نوح لما طلب منه قومه طرد المؤمنين معه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠]، وقال سبحانه عما جرى لنبيه موسى وقومه: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقد بلغ رسول الله ﷺ الغاية في معرفة ربه سبحانه، ومحبته، ورجائه، والخوف منه، وأكد ذلك في ردّه على بعض أصحابه بقوله: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»(١). وقد أمره ربه في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم بأن يخاطب قومه قائلاً: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٥]، [يونس: ١٥]، [الزُّمَر: ١٣]، ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٣]. وقد صرّح كما أخبره بأن يؤكّد لهم خوفه عليهم إن هم كذبوه وتولوا عنه: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

وكثيراً ما كان يظهر أثر خوفه صلى الله عليه وسلم من ربه في واقع الحال؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم،

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

عُرف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرّ به، وذهب عنه ذلك، قالت عائشة: فسألته، فقال: «إني خشيت أن يكون عذابا سُلّط على أمتي». ويقول إذا رأى المطر: «رحمة»[1]. وعن أبي موسى ﵁ قال: خسفت الشمس، فقام النبي ﷺ فزعًا، يخشى أن تكون الساعة، فأتى المسجد، فصلّى بأطول قيام وركوع وسجود رأيتُه قط يفعله، وقال: «هذه الآيات التي يرسل الله، لا تكون لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوف الله به عباده، فإذا رأيتم شيئا من ذلك، فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره»[2] وعن عبد الله بن عمرو قال: انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فقام فلم يكد يركع، ثم ركع فلم يكد يرفع، ثم رفع فلم يكد يسجد، ثم سجد فلم يكد يرفع، ثم رفع فلم يكد يسجد، ثم سجد فلم يكد يرفع، ثم رفع، وفعل في الركعة الأخرى مثل ذلك، ثم نفخ في آخر سجوده فقال: «أف، أف»، ثم قال: «ربِّ ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم؟ ألم تعدني ألا تعذبهم وهم يستغفرون؟ «ففرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته، وقد أمحصت الشمس، وساق الحديث[3].

---

(١) صحيح مسلم، (٢/ ٦١٦).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٣٩).

(٣) سنن أبي داود، (١/ ٣١٠). قال الألباني: صحيح.

ثانياً:

قواعد للتعرف على جنود الله تعالى في السماوات والأرض.

١٤. جنود الله تعالى لا طاقة للبشر بهم.

كلّ ما في السماوات والأرض ومن فيها خاضعون لله جلّ جلاله، أذلاء بين يديه، مقهورون بأمره وسلطانه. قال سبحانه مخبراً عن ردّ نبيه هود عليه الصلاة والسلام بعدما هدّده قومه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦]. أي: اعتمدت على الله وحده في أمري كله فهو خالق الجميع، ومُدبّرنا وإياكم، وهو الذي ربانا وإياكم، لا تتحرك دابّة ولا تسكن إلا بإذنه، ولو اجتمعتم جميعا على الإيقاع بي، والله لم يسلّطكم عليّ لم تقدروا على ذلك[1]. وقال جلّ شأنه مذكّراً بشمول ملكه، وقدرته على جميع خلقه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الفتح: ٤].

وجنوده سبحانه في السماوات والأرض على أحوال وأعمال تناسب وظائفهم. وتسليطهم على المجرمين يتبع حكمة الله تعالى البالغة، وحال المجرمين من خلقه؛ فهو تارة يُرسل جندياً واحداً لحصد أمّة قائمة بأكملها في طرفة عين، وتارة يتابع إرسال الآيات تخويفاً، وتأديباً، على فترات متعاقبة. قال جلّ جلاله مخبراً عن قوم مدين: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]، وقال سبحانه مذكراً بالآيات التي أرسلها لفرعون وملئه:

---

(١) تفسير السعدي، (ص: ٣٨٤).

﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢- ١٣٣]

والبشر يُعجزهم في كثير من الأحيان مقاومةَ جندي من جنسهم، فكيف إذا انضمّ له جنودٌ من الجنّ والطير، بل كيف إذا عزّز قوتهم الريح العاصف والطوفان الهادر؟ قال جلّ جلاله في سياق الإخبار عن تهديد سليمان عليه السلام لأهل سبأ: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٧]. وواقع الحال يشهد على هذه الحقيقية فكم من دولة وُصفت بأنها (كبرى) طاف عليها جندي واحدٌ من جنود الله تعالى العظيمة كالأعاصير، والفيضانات، والزلازل، والبراكين، أو أسراب الجنود الضعيفة كالجراد، والجرذان، والحشرات، ليخرج أهلها بعد الكارثة أذلّة صاغرين، يتكفّفون المعونات، ويطلبون المساعدات، بعد أنّ شُلّت حركتهم، واضطرب اقتصادهم، وتوقفت أنظمة حياتهم!

والهلاك إذا وقع بقرية أو دولة أو أمّة فلن تملك قوة على دفعه بنفسها، ولن تجد ناصراً يردّه عنها، قال الله جلّ جلاله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴾ [محمد: ١٣].

وجنود السماوات والأرض تتفاوت من حيث قوتها، ووظائفها، وطريقة إهلاكها. وفيما يلي عرض لبعض هذه الجنود، ونماذج من المهمّات الحاسمة التي أرسلها بها خالقها جلّ جلاله.

أولاً: من جنود الله جلّ جلاله في السماء.

اقترنت جهة العلوّ في فطرة الإنسان عموماً بالخير، والنفع العميم، وتنزّل البركات. فإذا تغيّر سماؤها، وتبدّلت أحوالها كانت مثار فزع، وخوف، وهرعت بسببه المخلوقات الأرضية: إنسها، وجنّها، وطيرها، وحيوانها إلى الاستكنان وطلب الحماية.

والعذاب القادم من السماء كان ولا يزال من أشد أنواع العذاب، ومعه يحصل الفناء، أو الدمار الشامل. وقد أخبر الله تعالى ورسوله ﷺ عن بعض جنود السماء، والمهمات الحاسمة التي قاموا بها على مدار التأريخ، ومنهم: الملائكة، والطير المرسلة بأحجار سجيل المُحرقة، والرّيح، والصيحة، والمطر، والصواعق، وذلك كما يلي:

١٥. الملائكة، أشرف جنود السماء.

أشرف جنود السماء التي تتنزل إلى الأرض بأمر الله تعالى: الملائكة. وتنزّلهم إلى الأرض تنزّل حقيقي، أخبر الله تعالى عنه ورسوله ﷺ، قال جلّ شأنه على لسان أمين وحيه جبريل عليه السلام: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤]. ومن غايات تنزّلهم الكثيرة: القتال والإهلاك والدّمار للظالمين، قال الله سبحانه في شأن تنزّل الملائكة يوم بدر للقتال مع المؤمنين: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ

ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [الأنفال: ١٢-١٤]. والبنان: جمع بنانة، وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين. والمعنى: واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم هامات جباههم، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، كلّ طَرَف ومَفْصِل من أطراف أيديهم وأرجلهم[1].

وعلامة قتلى الملائكة من الكافرين معلومة ظاهرة، عن عمر بن الخطاب ﵁، قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مدّ يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه، مادا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ فأمدّه الله بالملائكة. فبينما رجل من المسلمين يومئذ يشتدّ في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: «أقدم حيزوم»، فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا

(١) تفسير الطبري، (١٣/ ٤٣١).

هو قد خُطم أنفه، وشُقّ وجهه، كضربة السوط، فاخضرّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة»، فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين[1].

وقوله تعالى للكافرين: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ أي: هذا العقابُ الذي عجلته لكم، أيها الكافرون المشاقون لله ورسوله، في الدنيا، من الضرب فوق الأعناق منكم، وضرب كل بنان، بأيدي أوليائي المؤمنين، فذوقوه عاجلا واعلموا أن لكم في الآجل والمعاد عذابَ النار[2].

وقال سبحانه مخبراً عن الحوار الذي دار بين إبراهيم والملائكة الكرام عليهم جميعاً الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر:٥٧-٥٩] وقد أخبرنا الله تعالى عن بعض مشاهد العذاب التي حلّت بالمجرمين في ذلك اليوم، بقوله جلّ جلاله: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣]. عن مجاهد قال: أخذ جبريل عليه السلام قوم لوط من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وامتعتهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم

(١) صحيح مسلم، (٣/ ١٣٨٣).
(٢) المرجع نفسه، (١٣/ ٤٣١).

ثم أكفأهم. وقال رحمه الله: أدخل جبريل جناحه تحت الأرض السفلى من قوم لوط، ثم أخذهم بالجناح الأيمن، فأخذهم من سرحهم ومواشيهم، ثم رفعها. وعنه قال: لما أصبحوا غدا جبريل على قريتهم، ففتقها من أركانها، ثم أدخل جناحه، ثم حملها على خَوافي جناحه[1].

ومما أرسلت به الملائكة: حفظ الأنبياء والمصلحين من كيد عدوهم، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]. عن أبي هريرة، قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»[2].

وأعداء الملائكة من البشر هم أولياء الشيطان وأعوانه ومدده على الحقيقة. ومما يشهد بقرب اليهود من وليهم الشياطين: اشتراكهم جميعاً في عداوة جبريل عليه السلام خصوصاً. عن أنس رضي الله عنه قال: سمع عبد الله بن سلام، بقدوم رسول الله ﷺ، وهو في أرض يخترف، فأتى النبي ﷺ وسلم فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أول أشراط الساعة؟ ، وما

(١) تفسير الطبري، (١٥/ ٤٤٠).

(٢) صحيح مسلم، (٤/ ٢١٥٤).

أول طعام أهل الجنة؟ ، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل آنفا» قال: جبريل؟: قال: «نعم»، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. الحديث[1].

١٦. الطير المرسلة من جنود الله تعالى في السماء.

ومن جند الله تعالى في السماء: الطيرُ المرسلةُ بأمر ربّها. ولا عجب في كون الطير من الجند لأنّ الله تعالى أخبر عنها في معرض تعداد أجناس الجيش الذي سخّره لنبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام، بقوله جلّ شأنه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:١٧]. وبأس كل صنف من الجنود بالنظر في خصوصية ووظيفته، وبأس هذا الجندي يظهر فيما يحمله من أسلحة الدمار الشامل، والقوة التدميرية التي تعقب قيامه بتنفيذ أمر ربّه.

- **أحجار سجيل المُحرقة:**

أخبر الحقّ سبحانه عن معارك حاسمة فاصلة خاضتها (الطير) ضدّ الباطل؛ حيث أرسلها سبحانه لصدّ جيش أبرهة الجرّار الذي أراد هدم الكعبة، ولم يقدر أحد من العرب على مواجهته. فلما وصل مشارف مكة لاذ أهلها بالفرار إلى رؤوس الجبال، وقال زعيمها عبد المطلب يومئذ

---

(١) صحيح البخاري، (٦/ ١٩).

مقولته المشهورة: (للبيت ربّ يحميه). وقد خلّد الله جلّ جلاله تلك المعركة العجيبة في سورة كاملة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ١-٥].

ولم يكن ذلك أول العهد بإهلاك المجرمين بأحجار (سجيل) الناريّة الملتهبة، بل ورد الإخبار عنه في سياق الحديث عمّا وقع لقوم لوط من قبل، قال الله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٢-٨٣]. وقال سبحانه مصرحـًا باسم هذه الحجارة وأوصافها: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:٧٣-٧٦].

وقد تضمنت هذه الآيات ستة أوصاف لأحجار سجيل المُحرقة: أنها حجارة، وأنها أُمطرت على القوم من السماء، وأنا سريعة كثيرة متتابعة، تنزّلت عليهم كما يتنزّل المطر، وأنّها من (سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ)، وسجيل اسم يُطلق على الحجارة من الطين[١]، وكلمة (مَنضُود) وصف لسجيل، لا للحجارة، كما يقول الطبري رحمه الله، فإنّهم إنّما أمطروا حجارة من طين، وصفة ذلك الطين أنه نُضِد بعضه إلى بعض حتى صار حجارة، ولم يُمْطَرُوا

(١) تفسير الطبري، (١٥/ ٤٣٤).

الطين نفسه[1]، وأن التعذيب بها قائم، لا يُستبعد وقوعه بمن فَعَل فِعل قوم لوط إلى قيام الساعة.

وكما يُرسل الله تعالى الطير للعذاب فإنه يرسلها كذلك رحمة وبشرى للمؤمنين، تُظلّهم من وهج الشمس، وتسترهم من عدوهم. وشواهد التأريخ كثيرة على مواقف الطير مع المرسلين، والمجاهدين وصالح المؤمنين، وهي لا تخرج عن قدَرها الذي قدّر الله تعالى لها. عن أبي بردة، قال: أتيت عائشة رضي الله عنها، فقلت: يا أمتاه، حدثيني شيئا سمعتيه من رسول الله ﷺ، فقالت: قال رسول الله ﷺ: «الطير تجري بقدر»[2].

ولم يتوقف تأثير هذا الجندي المطيع على تعاقب الزمان، وإن لم يتم رصّد معاركه الفاصلة الأخرى التي خاضها في سبيل الله تعالى. ومما ورد التصريح به: قيامه بمهمّة حاسمة أخرى، في أعقاب الموت الذي يُنزله الله سبحانه على الجموع الغفيرة ليأجوج ومأجوج في آخر الزمان، قال ﷺ: «فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيُرسل الله عليهم (أي: يأجوج ومأجوج) النَّغف في رقابهم، فيصبحون فَرَسَى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه

---

(١) تفسير الطبري، (١٥/ ٤٣٤).

(٢) مسند أحمد، (٤١/ ٤٤٨)، وحسنه الألباني. وقد ضرب النبي ﷺ مثلًا بالطير في حسن التوكل على الله تعالى، وبذل الأسباب، فعن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا». جامع الترمذي، (٤/ ٥٧٣)، وقال الألباني: صحيح.

زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرا كأعناق البُخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرا لا يُكنّ منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلِقة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل، حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس[1].

١٧. الرّيح جندي عظيم من جنود السماء.

ومن جنود الله تعالى: الريح. وهي من أعظم جنود السماء بعد الملائكة. والعجيب أنها من رقّتها تتهادى بنسائم الرحمة على المؤمنين، وتشتدّ غضبًا على الكافرين لتستحيل أعاصير تدمّر كلّ شيء بأمر ربها! قال الله تعالى في معرض الامتنان على بني آدم بإرسال الرياح رحمة وبشرى.. تنقل الحَبّ، وتسوق السحاب، وتُجري السفن: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٥٤). قال محمد عبدالباقي رحمه الله: النّغَف: دُودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم الواحدة نَغفة، ومعنى فَرسَى: أي قتلى، واحدهم فريس كقتيل وقتلى، وزهمهم أي: دسمهم، والبُخت: الإبل الخراسانية، وهي جمال طوال الأعناق، ومعنى لا يُكِنّ: أي لا يمنع من نزول الماء، والمدر: الطين الصلب، ومعنى كالزَّلِقة: تشبيه للأرض بالمرآة في صفائها ونظافتها، والمراد بالعصابة: الجماعة. ومعنى قَحفِها: هو مقعّر قشرها شبهها بقحف الرأس وهو الذي فوق الدماغ وقيل ما انفلق من جمجمته وانفصل، والرّسل: هو اللبن، واللِّقحة (بكسر اللام وفتحها): القريبة العهد بالولادة، واللقوح ذات اللبن وجمعها لقاح، والفئام: الجماعة الكثيرة. والفخذ من الناس: الجماعة من الأقارب وهم دون البطن، والبطن دون القبيلة.

مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم: ٤٦]، وقال جلّ جلاله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

كما أخبر سبحانه عن بعض آثار قدرته وقهره، وكيف يسلّط هذه الريح لتستحيل عذاباً ماحقاً بمن استكبر وخالف أمره، قال سبحانه: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٥]، وقال جلّ شأنه: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [القمر:١٨-٢١]. وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥]

وقال سبحانه ممتناً على المؤمنين، ومذكراً بما حدث في الليلة الأخيرة من ليالي الخندق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩]. وهذه الريح المرسلة تسمّى: ريح الصَّبا الشرقية، يبعثها الله تعالى تأييداً لأنبيائه في أوقات الشدائد. عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نُصِرْتُ

بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»[1]. قال حذيفة ﷺ مخبراً عما فعلته هذه الريح بمعسكر العدو في تلك الليلة: وإذا الرّيح في عسكرهم (أي: الأحزاب)، ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إنّي لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفُرُشِهم، الريحُ تضربهم بها[2]. وفي لفظ: وهبّت ريح الصَّبا ليلًا، فقلعت الأوتاد، وألقت عليهم الأبنية، وكفأت القدور، وسفَت عليهم التراب، ورمتهم بالحصا، وسمعوا في أرجاء معسكرهم التكبير وقعقعة السلاح، أي: من الملائكة، فصار سيّد كلّ حيّ يقول لقومه: يا بني فلان، هلُمّوا إليّ، فإذا اجتمعوا قال: النّجاء، النّجاء؛ فارتحلوا هِرابًا في ليلتهم، وتركوا ما استثقلوه من متاعهم[3]. وفي السيرة الحلبية قال حذيفة: فلما انتصفتُ الطريق (أي: عائداً لمعسكر المؤمنين)، إذ أنا بنحو عشرين فارسًا معتمّين، فخرج إليّ منهم فارسان، وقالا: أخبر صاحبك أنّ الله كفاه القوم[4].

وكما يتفاضل جنود الله تعالى في الأرض، فكذلك جُند السماء كما سيأتي، ومن ذلك ـ والله أعلم ـ تفاضل أجناس الجنود من الرياح والمياه ونحوها، فمن شارك منها في محق الباطل، أو في نجاة نبيّ كريم وطائفة مؤمنة زمن العسرة أشرفُ من غيره من أفراد جنسه. ومما يُستأنس به في ذلك أنّ من

---

(١) متفق عليه.

(٢) وفي لفظ: نصر الله المسلمين بالريح، وكانت ريحًا صفراء، ملأت عيونهم، ودامت عليهم. (السيرة الحلبية، ج٢/ ص٦٥١).

(٣) السيرة الحلبية، (ج٢/ ص٦٥٤).

(٤) المرجع نفسه.

الآيـات مـا أخـذ مسمّى خاصّـاً عُـرف بـه دون سـائر جنسـه؛ فالرّيـح التـي تُرسَـل للإهـلاك: الدّبـور، والتـي تُرسـل بالنصـر الصَّبـا[1].

١٨. الصيحة، والمطر، والصواعق، جنود مُرسلة من السماء.

ومـن جنـود الله تعالـى المرسـلة مـن السـماء: الصيحـة، وهـي صـوتٌ عظيـم لمَلَـكٍ كريـم، يفـوق صوتـه قـدرة البشـر، ويتجـاوز مدركاتهـم الضعيفـة، وبسـببه يصعـق أهـل الأرض لعـدم قدرتهـم علـى احتمالـه. وقـد وصـف الله تعالـى حـال المعذبيـن بعـد سـماع هـذه الصيحـة بوصـف رهيـب مخيـف بقولـه جـلّ شـأنه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾[هـود: ٦٦-٦٨].

ومـن جنـود السـماء: السـحاب المحمّـل بالمطـر، قـال تعالـى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعـد: ١٢-١٣]

والصواعـق المحرقـة مـن جنـود الله تعالـى في السـماء، وهـي بخـلاف الشـهب والنيـازك؛ يرسـلها الحـق جلّـت حكمتـه علـى قـوم، ويحجبهـا عـن آخريـن مجاوريـن لهـم، قريبيـن منهـم: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ

(١) المدينة المحاصرة، كتاب منشور للمؤلف، ص ٤١٦.

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]، وممن أُهلك بهذا الجندي العظيم: ثمود، أصحاب الحِجر، قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات:٤٣-٤٥].

وهذا النوع من العذاب ـ برغم شدته ـ يحمل معنى الإهانة والتأديب، حيث يتنزّل على شكل سوط.. طرفه في السماء وطرفه الآخر في الأرض التي حقّ على أهلها العذاب، وهو شكل ظاهر لم يعد يخفى على من نظر في الصور الملتقطة للصواعق المعاصرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٣].

ومن جُند السماء: الشُّهب والنيازك، وهي كراتٌ نارية مُحرقة، تحيط بالأرض من كل جانب، وتضرب سماءها وتخترق طبقاتها باستمرار. والعجيب أنها لا تسقط فوق المناطق المأهولة بالبشر، ولا تؤذي أحداً منهم، على الرغم من كثرتها، وتنوع أماكن سقوطها، وهو ما يثير دهشة العلماء المعاصرين، ولا يملكون له تفسيراً منطقياً، مما يجعلنا على ثقة بجنس المعذبين بها، على الوجه الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ [الحجر: ١٦-١٨].

ثانياً: من جنود الله جلّ جلاله في الأرض.

كلّ ما في السماوات والأرض ومن فيهما جندي مخلص لله تعالى؛ من الفيروس الضئيل مروراً بأفلاك الكون العظيم إلى ملائكة السماء في عوالمها القدسية.

وجنود الأرض تشمل كلّ ما يحيط بالإنسان في برّه وبحره وجوّه؛ فالأرض بطرقها ومسالكها، والجبل بكهفه وسفحه، والبحر بأعماقه ولُججه، والصحاري والأنهار، والغابات والمروج، والظلمة والليل.. بكلّ ما يتنفس فيها، ويدبّ عليها، أو يغوص فيها.. بل الجسد بأعضائه وخلاياه وشرايينه.. الكل خاضع لربه، مطيع لخالقه، لا يتردد لحظة عن إنفاذ أمره في هذا الإنسان الضعيف.

وعلى الرغم من تنوّع جنود الأرض من حيث القوة والتأثير إلا أنّ أظهرها وأشهرها: المجاهدون القائمون بأمر ربهم، والأرض بصفائحها وأثقالها وحممها العلوية والسفلية، والماء، وجندٌ سواهم لا يُحصون كثرة.

١٩. المجاهدون في سبيل الله تعالى: أشرف جنود الأرض وأكرمهم.

كما أن الملائكة أشرف جُند السماء فإن أشرف جنود الأرض وأكرمهم عند ربّهم: المجاهدون في سبيل الله تعالى، الذين يسلّطهم على من كفر من عباده، وحاد عن أمره. ومع أنّ الله تعالى له جنود السماوات والأرض الكثيرة، وكلّ خلقه له جند، لو سلط أضعفهم على أشدّهم لمحقه وأباد

خضراءه وقطع دابره إلا أنّ له حكمته البالغة في تسليط بعضهم على بعض، ومن ذلك ما أخبر به جلّ جلاله من ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض بقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، والمعنى: إنه تعالى على كل شيء قدير، وهو قادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبدا، حتى يبيد المسلمون خضراءهم، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيمانا صحيحا عن بصيرة، لا إيمانا مبنيا على متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جدا، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا[1].

والمقرر في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وشواهد الصراع الطويل أنّ محق الباطل - وبخاصّة الصائل منه - بأيدي المؤمنين أحبّ إلى الله تعالى من المحق المتحصّل له بالآيات الكونية، كالطوفان والزلازل، والرياح والبراكين ونحوها، بل أحبّ حتى من الإهلاك بأيدي الملائكة أنفسهم، أعظم جند الله تعالى في السماء[2]. ويكفي لبيان شرف محق الباطل بأيدي المؤمنين أنّ الله تعالى قرنه بذاته العليّة في قوله سبحانه: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ

(١) تفسير السعدي، (ص: ٧٨٥).

(٢) وعلى هذا فأبلغ من الدعاء بهلاك الكافرين والظالمين بالغرق والطوفان والزلازل وتجميد الدماء، ونحوها: الدعاء بأن يُصلح الله تعالى أحوال هذه الأمّة، ويُبرم لدينه قادة صادقين، ورجالاً مؤمنين يحبّهم ويحبّونه: يُعلون كلمته، ويقيمون شرعه، ويصدعون بكلمة الحق، ويجاهدون فيه لا يخافون لومة لائم.

وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:١٤]. ولأن العبرة بعموم اللفظ فالآية تعمّ من نكث العهد وغيره. ولم يرد هذا الاقتران ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ في الحديث عن استئصال الكافرين بالآيات الكونية؛ لحِكم عدّة، من ألطفها ما أشار إليه فخر الدين الرازي عند التفريق بين هذين العذابين ـ القتل والاستئصال ـ بقوله: وعذاب الاستئصال ـ أي بالآيات ـ قد يتعدّى إلى غير المذنب، وإن كان في حقّه سببا لمزيد الثواب، أمّا عذاب القتل فالظاهر أنه يبقى مقصورا على المذنب[١].

ويعظم قدر هذا الصنف من جند الله تعالى في أوقات الشدة والحاجة، وعند كثرة العدو الكافر، ومن ذلك ما أخبر عنه رسول ﷺ في آخر الزمان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافّوا، قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا، والله لا نخلّي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا، ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث، لا يفتنون أبدا فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علّقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إنّ المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشأم خرج، فبينما هم يُعدّون للقتال، يسوّون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم صلى الله

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب، (١٦/ ٥).

عليه وسلم، فأمّهم، فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته»[1].

٢٠. الماء.. جندي عظيم من جنود الله تعالى.

ومن جنود الله العظيمة في الأرض: الماء الذي يتفجّر من البحار، والأنهار، والعيون غضباً لله تعالى، ثم يطغى بطوفانه على اليابسة، ويُغرق من شاء ربّه من البلاد والعباد.

ومن عجيب قدرة الله تعالى وعظيم تدبيره أنّ هيجان هذا الجندي قد يبدأ في مكان وزمان لا تجري عليه حسابات البشر، كما حدث في الفيضان العظيم الذي أغرق الأرض زمن نوح عليه الصلاة والسلام، حيث تفجّر الماء من موضع لا يُتصّور تدفقه منه، في يابسة جرداء، لا ماء فيها، ولا عيون، من داخل تنور يُسجّر بالنار ليُخبز به الطعام!!

وقد جعل الله تعالى فوران التنور بالماء علامة نزول العقوبة، وأوحى إلى نوح عليه الصلاة السلام أن يحمل من كل صنف من الحيوانات، زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، فحملهم فيها ونجاهم الله بها. قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ

---

(١) صحيح مسلم، (٤/ ٢٢٢١).

كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ﴾، وقال سبحانه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ [القمر: ١٠ – ١٢]. والمعنى: فالتقى ماء السماء وماء الأرض وفق ما كتبه الله تعالى في الأزل وقضاه من إنزال الهلاك بهؤلاء الطغاة الظالمين.

ومما يُظهر قدرة الله تعالى وحسن تدبيره أنّ أمواج الماء التي أغرقت الأرض في ذلك اليوم العصيب كانت مُرسلة رحمةً وعذاباً في الوقت ذاته: رحمة بالمؤمنين على سفينتهم الخشبية المتواضعة، وعذاباً على المجرمين في السهل والجبل، قال الله جلّ جلاله: ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٢-٤٣]

والماء في محيطاته العميقة وأمواجه العظيمة كثيراً ما يضطرب بالناس ـ مؤمنهم وكافرهم ـ انتقاماً وتخويفاً وتأديباً، قال الله سبحانه: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴾ [لقمان: ٣٢]

ولولا رحمة الله تعالى لأهلك هذا الجندي الهادر العصاةَ السادرين على شاطئه مع أول ذنب يقترفونه، ولكنّ الله تعالى يسجره، أي يكفّه ويحبسه، كما يسجر رجال الشرطة كلابهم المعلّمة الشرسة أن تفتك بالمجرمين في قبضتهم. وقد أقسم الله تعالى بالبحر المسجور في سياق إخباره عن العذاب الواقع بالكافرين؛ فقال جلّ شأنه: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الطور: ٧]، ومن دلالات هذا القسم تأكيد وقوع العذاب بالمجرمين بعدما كُفّ عنهم وسُجر إمهالاً وإعذاراً، ومن دلالاته تعظيم شأن الغيرة على محارم الله تعالى واضطراب حال صاحبها إذا عُصي اللهُ تعالى أمامه، وتشريف تلك الغيرة وإن وقعت من جماد تبرّأ من حمل أمانة التكليف وأشفق منها. وقد ورد في السنة ما يؤكد هذا المعنى؛ فعن عمر بن الخطاب ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات على الأرض يستأذن الله في أن ينفضخ عليهم، فيكفه الله عز وجل». وفي رواية: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يُغرق ابن آدم، والملائكة تعاجله وتهلكه، والربّ سبحانه وتعالى يقول: دعوا عبدي»[1].

(١) مسند الإمام أحمد، (١/ ٢٩٣). وحكم الشيخ أحمد شاكر بضعفه لجهالة حال أحد الرواة.

٢١. السكينة.. جندي يتنزل على المؤمنين في أوقات الشدائد.

جنود الله تعالى منها ما هو ظاهر جليّ، ومنها ما هو مستور خفيّ. ومن جنود الله الخفية التي لا تظهر إلا آثارها: الأحوال النفسية التي تعتري بني آدم، ومنها: السكينة، والرّعب، والخوف، والقلق؛ والجوع، والمرض، ونحوها من جنود الأحوال التي يبتلي الله تعالى بها من يشاء من عباده.

والسكينة جندي من جنود الأحوال الزكية التي ينزّلها الله تعالى رحمة وبشرى للمؤمنين. وقد جاء التصريح بأنّها جندي من جنود الله تعالى، ينزّله على عباده المؤمنين في أوقات الشدائد خاصّة.

والعجيب أن ذكر (السّكينة) ورد في مواطن فاصلة في حياة النبي الكريم وأصحابه: حين كان ﷺ مع صاحبه في الغار، وفي يوم بدر، وحنين، والحديبية. قال الله جلّ شأنه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤] وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

وقد جلّى الله تعالى الفارق كبير بين حال المؤمنين قبل تنزّل السكينة وبعدها حين وصف ما كان عليه المؤمنون يوم الحديبية من

الترقّب والقلق، وحالهم بعد أن أنزل السكينة عليهم، بقوله سبحانه: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ١٨ -١٩].

والسكينة حال رضيّة إيمانية قلبية، ينتج عنها الأمن، والاطمئنان، والسكون، والرّضا، وتتولّد جراء أعمال صالحة ظاهرة يحبها الله تعالى، وكثيراً ما تقترن بتنزّل الوحي، وتتصل بالقرآن الكريم خاصّة؛ فكأنها الملائكة، أو الحال التي تكون بحضرتهم عليهم السلام.

عن البراء بن عازب ﵁، قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين، فتغشّته سحابة، فجعلت تدنو، وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: «تلك السكينة تنزلت بالقرآن»(١). وعن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن

---

(١) متفق عليه.

بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»[1]. وعنه ﷺ قال: قال ﷺ: «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[2].

٢٢. الرّعب.. جندي الشدائد، يقذفه الله في قلوب الكافرين.

إذا كانت السكينة من جنود الله تعالى التي تتنزّل على المؤمنين في ساعات العسرة للربط على قلوبهم، وتثبيتهم فإن الجوع والمرض، والخوف والقلق من جنود الله تعالى التي يسلّطها على الكافرين. وأعظم الجنود من هذا الصنف وأشدها فتكاً: جندي (الرعب) الذي يقذفه الله تعالى في قلوب الكافرين، وبخاصة في أوقات الحروب. وقد ورد التصريح بأثر هذا الجندي العظيم في قوله سبحانه مخبراً عمّا جرى لبني قريظة: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥- ٢٧].

بل ذكر الله سبحانه أنّ هذا الجندي الخفي يستنزل الكافرين من قلاعهم الحصينة، ويسلبهم لذة الراحة والنعيم، ويستجرّهم للاستلام والهزيمة، حتى قبل حصول القتال! قال جلّ جلاله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

(١) صحيح مسلم، (٤/ ٢٠٧٤).

(٢) المرجع نفسه.

مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: ٢- ٣].

وجاء التأكيد من رسول الله ﷺ على أنّ الرّعب جندي يمدّ الله تعالى به عباده، وينصر به أولياءه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلّت لي الغنائم، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة»[1].

٢٣. الأوبئة والأمراض. جنود يسلّطها الله على من يشاء من عباده.

ومن جنود الأحوال التي تقع بإذن الله تعالى: الأوبئة والأمراض، ولا يسلم منها مسلم وكافر، أما المؤمن فتكون له رفعة أو كفارة بحسب حاله، وأما الكافر فتقع عليه عذاباً أو إعذاراً ليتبصّر ويعتبر.

ومن الأمراض التي يكفّر الله تعالى بها ذنوب بالمؤمنين: الحُمّى، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب ـ أو أم المسيب ـ فقال: «ما لك يا أمّ السائب ـ أو يا أم المسيب ـ تزفزفين؟»، قالت: الحمى،

(١) متفق عليه.

لا بارك الله فيها، فقال: «لا تسبّي الحمى، فإنّها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد»[1].

ومن الأوبئة العامّة التي يحصل بسببها الفناء، وجاء الخبر في كونها رفعة وشهادة للمؤمنين، وعذاباً ومحقاً للكافرين: الطاعون، فعن حفصة بنت سيرين قالت: قال لي أنس بن مالك بم مات يحيى بن أبي عمرة؟ قلت: بالطاعون فقال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم»[2].

٢٤. يتنزّل المدد الكوني في لحظات ضعف المؤمنين واشتداد حاجتهم.

سنة المداولة بين إهلاك الكافرين بالقدر الكوني من جنود السماوات والأرض، أو بالقدر الشرعي على أيدي المؤمنين يخضع لحكم ربانية جليلة، وتدخّل الآيات الكونية كثيراً ما يقترن بتسلّط الكافرين، وانتفاش الباطل، وفشوّ الفجور والفواحش من جهة، وضعف الطائفة المؤمنة واشتداد حاجتها، وافتقارها للسند المادي من جهة أخرى.

ومن تأمّل نصوص الوحي وجد أنّ غضب الرياح، والأعاصير، والبحار، والصواعق مقترن بسخط الله تعالى على الكافرين الذين بغوا في الأرض، وتسلّطوا على المؤمنين، وأنّ تدخلهم يظهر بجلاء في أزمنة الأنبياء الكرام الذين لم يسلموا من كيد الباطل، وتحقق تهديده لهم بالنفي أو القتل، ومنهم

---

(١) صحيح مسلم، (٤/ ١٩٩٣).

(٢) متفق عليه.

الأنبياء الكرام: نوح، وإبراهيم، وشعيب، وهود، ولوط، وصالح، عليهم الصلاة والسلام. قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٩ – ١٤].

وقال سبحانه عن الظرف العصيب الذي مرّ به نبي الله لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٧٧-٧٩]. وهذه الكلمات الصادقة من النبي الكريم تبين قلّة الحيلة، وضعف القوة، مع عدم الناصر والمعين من أهل القرية. لكنه في المقابل كان يأوي إلى ركن شديد بالفعل، وإن لم يكن يعلم! فهؤلاء الثلاثة لم يكونوا شبّاناً عاديين، بل ملائكة كراماً أشداء أقوياء، أرسلهم الله تعالى إليه ليطمئنوه، ويبشّروه، ثم أمروه بأن يحزم متاعه، وأن يجمع المؤمنين من أهله؛ استعداداً للرحيل عن القرية؛ لأن العذاب الماحق سينزل على الأرض بعد ساعات قلائل، قائلين: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]. لقد كانت

الأوامر صارمة وواضحة: اتجه في هزيع الليل الآخر، من وقت السحر إلى المكان الآمن الذي ستقودك إليه الملائكة، ولا تنظر خلفك، وأمُر مَن معك من أهلك بذلك، وكن من ورائهم واجعلهم أمامك حتى لا يصيبهم الهلعُ والفزعُ مما قد يرون؛ فالعذاب سيكون قاطعاً ومرعباً، لا طاقة لأحد حتى بمشاهدته. قال الله سبحانه واصفاً تلك الساعات الحاسمة الرهيبة: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٢-٨٣]. كما جاء التأكيد بالفناء الشامل الذي سيحلّ بهؤلاء المجرمين في قوله سبحانه: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]. وهكذا نُزعت صفحة أمّة كاملة من الأمم، وتغيرت معها معالم رقعة جغرافية ممتدة من الأرض.

في المقابل لم يظهر تدخّل كبير للقدر الكوني في أزمنة (الأنبياء الملوك) الذين نصروا الحق بالقدر الشرعي، وأقاموا شعيرة الجهاد في سبيل الله تعالى، إلا ما كان من سليمان عليه الصلاة والسلام الذي دعا ربه بدعاء خاص استجاب له ربه بسببه. وما عدا ذلك فإنّ تسخير القدر الكوني في حياة هذا الصنف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما كان يظهر في أوقات الحاجة والاضطرار؛ لحماية نبي كريم ومن معه في ساعات العسرة، أو لهزيمة طائفة من الكافرين في معركة محدودة العدد والمكان، كما سبق من حديث الريح التي أرسلت على معسكر الأحزاب ففرّقت جمعهم، وقطّعت خيامهم وألقت الرعب في قلوبهم.

ثالثاً:

قواعد لمعرفة سنن الله تعالى المتعلقة بحركة الأفراد والمجتمعات.

٣٥. السنن الإلهية قوانين ثابتة، يجريها الله تعالى في الكون والأنفس.

السين والنون لها أصل واحد في اللغة هو: جريَان الشيء واطرادُهُ في سهولة. والأصل قولهم سَنَنْتُ الماءَ على وجهي أَسُنُّهُ سَنًّا، إذا أرسلتَه إرسالاً[١]. وتطلق السُّنّةُ على: الطريقة، والقاعدة، والسيرة.. حسنة كانت أم قبيحة. كما يطلق لفظ السنة على التماثل بين الأشياء[٢].

ويمكننا تعريف السنن الإلهية بأنها: ما يجريه الله تعالى في خلقه كونًا وشرعًا من ارتباط الأسباب بمسبباتها، والظواهر بحقائقها، وفق نظام ثابت يتعاقب حينًا بعد حين، بلا نقص ولا تبديل، بمقتضى علمه سبحانه، ومشيئته، وحكمته.

والتعرف على سنن الله تعالى يقود إلى فهم القوانين التي تسيّر حياة البشر، وقيام ممالكهم أو فنائها، وإثابة الطائعين، وعقاب المخالفين، كما يقود إلى تفسير التحولات المؤثرة على الظواهر الطبيعية من حولهم، كاختلاف حركة المد والجزر وتقلب الرياح ونحوها.

ولا يدخل في سنن الله تعالى شيء من العبثية، أو المصادفة، أو الفوضى، لأنها قامت بمقتضى علم الله تعالى، وحكمته وعدله، وتتسم بالثبات، والشمول، والاضطراد الذي يعين على اكتشاف القوانين الكونية، والاجتماعية، والتاريخية، ومعرفة طرق التعامل معها، وتوظيفها.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٦٠)

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ١٣/ ٢٢٠

ومن بين تلك السنن التي يجب معرفتها على وجه الخصوص: سنة الهدى والضلال، وسنة التدافع بين الحق والباطل، وسنة الفتنة والابتلاء، وحصول الجوع والخوف، والسنة الجارية في الترف والمترفين، وسنة المحق والاستدراج للظالمين، وسنة الضرب على قلوب المتكبرين، وسنّة حصول البأس بين المختلفين عند افتراق الكلمة، وركوب موارد الضلال بعد نزع الحكمة، وسنّة سلب النعمة وتغييرها بعد بطرها[1].

٢٦. سنن التغيير متعلقة بحال الأفراد بالدرجة الأولى.

أخبر الله سبحانه عن سنته القائمة وعادته الدائمة، وأنه لا يغيّر نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بأن يتحولوا من طاعته إلى معصيته، ومن شكر نعمته إلى كفرها، فإن فعلوا ذلك استحقوا أن يسلبهم إياها ويغيّرها عليهم كما غيّروا ما بأنفسهم؛ فإذا وفوا له بالشكر والطاعة وفى لهم بالحفظ والبقاء والزيادة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]

والإنسان بحاجة إلى غيره في جلب المنافع ودفع المضارّ، وهو مخلوق مكرّم يختلف عن سائر المخلوقات الأرضية، وقد اختصه الله تعالى عنها

(١) انظر كتاب السنن الإلهية للدكتور عبدالكريم زيدان فقد تناول كثيراً من هذه السنن بالتفصيل والبيان.

بخواص تناسب حاله؛ وتعينه على بلوغ غايته؛ منها: تزويده بالعقل الذي يدرك به النافع من الضار، والخبيث من الطيب، ويستعمله في مجال العلوم والصنائع التي هي نتيجة إعمال الفكر الذي يميزه عن الحيوانات، ومنها: ما ركّب الله تعالى فيه من فطرة السعي في طلب المعاش، وبذل الجهد في تحصيل أسبابه، وفق حكمة الله تعالى البالغة؛ حيث جعله يفتقر إلى الغذاء لبقاء حياته، ثم هداه إلى التماسه وطلبه، ولولا أنه فطره على ذلك ما سعى ولا اكتسب، كما قال سبحانه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، (طه: ٥٠)، ومنها: سعيه الحثيث للعمران؛ فإنه لولا ما ركّب الله فيه من الأنس بغيره من أبناء جنسه، وحاجته للتعاون معهم بسبب ضعفه ما قام العمران، ولا ظهرت المدن والقرى في السهول والجبال، ولا تمكن الإنسان في هذا المجال من تذليل الصعاب، واكتشاف الأسباب. وهذا يجري على كافة أحوال الفرد، وهو يسري كذلك في أحوال الأمم والدول، ومن ذلك تبدل أطوار القوة والضعف، والصحة والمرض على الفرد الواحد، وعلى الممالك والدول الكبيرة.. سواء بسواء.

ومن هنا كان علم السنن من أهم العلوم وأحراها بالطلب، وبخاصة تلك التي تتعلق بقيام الدول وظهورها، وصحتها ومرضها وسقوطها؛ ليستبين أهلها ما يفعلون، ويستعدوا لما يستقبلون، وبخاصة في أزمنة الضعف والانهيار؛ فإنها في الغالب أحلك الأوقات وأشدها، لما يصحبها من فترة

الانقطاع عن مألوف العادات السابقة، والتهيؤ لقبول الضرورات المستقبلة، التي ربما كانت على نقيضها في القبح أو الحُسن!

٢٧. ارتبط ذكر السنن بالنظر في آثار الهالكين، والاعتبار بعاقبتهم.

ورد الحديث عن السنن الإلهية في القرآن الكريم باللفظ الصريح المفرد: ﴿سُنَّةُ﴾، وبلفظ الجمع: ﴿سُنَنٌ﴾، كما أضافها الله عز وجل إلى نفسه تارة، إضافة للشيء إلى مصدره: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾، وأضافها إلى القوم المعذّبين تارة أخرى: ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لجريانها عليهم، وتعلقها بهم.

كما ورد الحديث عن السنن الإلهية بألفاظ أخرى، وبخاصة في ذكر ما جرى من الأنبياء مع أقوامهم، بلفظ: ﴿عَٰقِبَةُ﴾ التي تكررت إحدى وثلاثين مرة، مضافة لما بعدها: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾، ﴿عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾.

وجاء الحديث عن السنن بلفظ: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ وهي: وقائعه التي انتقم فيها من الأمم السالفة، وأيامه التي تجري في كل زمان ومكان على من سار سيرهم. كما وردت الإشارة للسنن الإلهية بلفظ: (السير في الأرض)، تارة بصيغة الأمر: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وسبع أخريات بصيغة المضارع: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وغاية هذا السير: النظر في آثار الهالكين، وديارهم الخَرِبة؛ للاعتبار بعاقبتهم، وكذا النظر في ملكوت الله في الكون؛ للاستدلال

على النشأة الأخرى يوم القيامة، والتأكيد على ذلك، كما في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٦-١٣٨].

والاعتبار بعاقبة المعذبين دائم إلى قيام الساعة؛ فآثارهم لا تزال حاضرة، ومساكنهم قائمة لم تُسكن من بعدهم، كما أخبر الحق سبحانه؛ ولما مرّ النبي ﷺ وأصحابه بديار ثمود نهاهم عن الاستقاء من مائها، وحذرهم من غشيانها وإتيانها إلا أن يكونوا باكين، يعرفون سنة الله التي جرت على أولئك المعذبين فيعتبرون منها، وبيوت المعذبين من قوم صالح المنحوتة في الصخر لا تزال شاهدة، وجثة فرعون لا تزال حاضرة.. تطوف العالم، وتُعرض في المتاحف؛ ليحق فيه قول الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

٢٨. مدار السنن الربانية قائم على قانون السببية.

من سمات السنن الإلهية: ثباتها، وشمولها، وتكرارها إذا توافرت ظروفها. وهي عامّة تشمل جميع المخلوقات، ومتكررة في كل زمان ومكان؛ فسنن النصر والهزيمة واحدة، وكذلك سنن الاستدراج، وسنن التدافع، وقيام الدول وزوالها، والرقي والتخلف، والتمكين والاستضعاف.. كلها سنن ثابتة لا تتبدل، ولا تتخلف إذا وجدت ظروفها، وتوافرت شروطها. قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[النساء: ١٢٣] فجعل سنته مضطردة، لا تحابي أحداً،

تجري على هؤلاء وهؤلاء، إذا توافرت فيهم شروطها، ووجدت ظروفها. وسنن الله تعالى في خلقه دائمة، متكررة، لا تتبدل ولا تتحول، قال جلّ شأنه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى: السنة هي الْعَادَةُ الَّتِي تَتضمَّن أَن يُفعل في الثَّاني مِثل ما فُعل بنظِيره الأوّل[١].

واقتضت حكمة الله تعالى ربط المسببات بأسبابها[٢]، والنتائج بمقدماتها. وهذا القانون عام شامل لكل ما يحدث في العالم، وما يحصل للإنسان، في الدنيا والآخرة. قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى: فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات[٣].

وقانون السببية يظهر بجلاء في التقلبات الأرضية والتغيرات المناخية التي تتضح أسبابها وتنضبط مقدماتها ونتائجها، ويمكن التعرف على قوانينها، والتحكم في بعضها بالإعمال أو الإهمال، بخلاف ما يتعلق بسلوك البشر وأفعالهم وفق قوانين الاجتماع والعمران فإن أسباب قيامها وزوالها وإن كانت ثابتة معلومة إلا أن جريانها يختلف من أمة إلى أخرى، ومن دولة إلى أخرى، بالنظر في تفاوتها من حيث الظلم والعدل، والعلم والجهل. وهذا يسري على جميع السنن، في جميع المجالات الدينية والدنيوية.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٢٠

(٢) مدارج السالكين، (٣/ ٤٤٣).

(٣) مجموع الفتاوى، (٨/ ٧٠).

والتخلف المادي المعاصر للمسلمين في شتى المجالات في مقابل تفوق غيرهم خير مثال لاختلاف النتائج بسبب الإعمال أو الإهمال لقانون السببية؛ فإنّ الأمر كله لا يخرج عن سنة الله تعالى التي أودعها في الكون، ولا تحابي أحداً على أحد؛ ففي الوقت الذي أدركت فيه كثير من الدول ـ قبل عشرات السنين ـ أهمية التغيير من واقعها المتردّي، وضرورة العمل الشاق للتفوق في مضمار الريادة والتنافس المادي، وإن استغرق منهم أجيالاً عدة، فإن المسلمين ـ في المقابل ـ كانت تمارس عليهم عمداً آنذاك سياسة التغيب الحضاري، والإقصاء عن أدوات التطوير والتغيير والمنافسة الحقيقية. وفي ظل هيمنة عدوهم وقابليتهم بل تفانيهم في تنفيذ ما يخطط لهم غيرهم استشْرَت فيهم آفات الجهل والفقر والفرقة التي زادت من تخلّفهم، وكرّست في المقابل من شعورهم بالدونية والاستسلام لواقعهم، وعزّزت من قبضة عدوهم الذي تحكم بمصيرهم، وخطط لمستقبلهم، بعدما نهب خيراتهم ومواردهم، وثمرات عقولهم التي أصبحت ترضخ لإرادته وتتفانى في تنفيذ مخططاته للظفر بامتيازاته السياسية والاقتصادية والتعليمية في بلدانهم!! كما أخبر ﷺ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سَنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»[1].

---

(١) متفق عليه.

وسنن الله تعالى لا تحابي هؤلاء على حساب هؤلاء، بل هي سنّة مضطردة ثابتة تسري على الجميع؛ فالساعي لمبتغاه الدنيوي فيها، الباذل جهده ينال مراده وإن كان كافراً متمرداً، والقاعد خلف أمانيه يصيبه من الخيبة والفشل والهزيمة بقدر عجزه وكسله وإن كان تقياً عابداً. وكما يجري ذلك على الأفراد يجري على الامبراطوريات والدول والمؤسسات، في المجالات الدينية والمجالات الدنيوية، قال جلّ شأنه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء: ١٨-٢٠]. قال المراغي: أي من كان طلبه الدنيا العاجلة، ولها يعمل ويسعى، وإياها يبتغى، لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا من ربه على ما يعمل، يعجل الله له في الدنيا ما يشاء من بسط الرزق وسعة العيش ثم يصليه حين مقدمه عليه في الآخرة جهنم مذموما على قلة شكره وسوء صنيعه فيما سلف، مبعداً من رحمته مطرودا من إنعامه.. ومن أراد الآخرة ولها عمل وإياها طلب، فأطاع الله وطلب ما يرضيه، وهو مصدّق بثوابه وعظيم جزائه على سعيه لها شكر الله له جزيل سعيه وآتاه حسن المثوبة كفاء ما قدم من صالح العمل، وتجاوز عن سيئاته، وأدخله فراديس جناته[1].

---

(١) تفسير المراغي (١٥/ ٢٧).

٣٩. من أسباب عدم الاعتبار بالسنن: أثرها البعيد، ومداها الزمني الطويل.

كثيراً ما يتأثر الناس بالنتائج الكبيرة التي تحدثها العقوبات الكونية، التي تتسم بمداها القصير، وأثرها الحاسم، بخلاف ضعف تأثرهم وقلة اعتبارهم بالسنن الذي يعود لأسباب، منها: مداها الزمني الطويل، وأثرها التراكمي البعيد، الذي ربما استغرق جيلاً أو جيلين من أعمار الأمم بين وقوع سبب الاستحقاق والنتيجة.

ومن العلوم النافعة المهجورة المتصلة بهذا الباب: معرفة الغايات الشرعية من زوال الأمم والدول بالعقوبات الآنية، وزوالها بمجريات السنن. ومع أن المحصلة في النهاية واحدة إلا أنّ طبيعة الإهلاك والفناء في الحالتين تخضع لاعتبارات وغايات أخبر الله تعالى عنها ورسوله، منها: تهييج المصلحين لمدافعة الخَبثَ في الأمم المعذّبة، وإن طال أمد تلك المدافعة، وتعددت مجالاتها، ومنها: اختلاط المجرمين بضعفة المسلمين، ولو أنهم (تزيّلوا)، أي: تفرقوا وتميزوا لأوقع الله بهم عذابه، ونحو ذلك من الاعتبارات والغايات التي سيأتي الحديث عنها.

وسنة التمكين في الأرض على النقيض من سنة المحق والفناء، وهي بدورها تخضع لمجريات السنن، وربما استغرق التمكين لأولياء الله المؤمنين جيلاً أو جيلين من أعمار الدول؛ لاعتبارات وغايات كثيرة أخبر الله تعالى عنها ورسوله؛ منها: ظهور الخبَث في تلك الأمم، وكثرته، وشراسته، وكفّه

يد المصلحين بقتلهم، أو حبسهم، أو منعهم والتضييق عليهم، وكذا تمكّن الشرك والبدعة، وظهورهما ظهوراً لا يُنازعان فيه، أو بقاء نوع من الظلم بعينه يمتنع التمكين بوجوده، ونحو ذلك من الموانع والاعتبارات.

وفي الجملة نجد أنّ القدر المشترك بين الأمم والدول التي حقت عليها العقوبة يكمن في جهلها بالسنن أو غفلتها عنها؛ وهذا هو النسيان الذي حذر الله تعالى منه، وعدّه عقوبة بحد ذاته، قال الله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة:١٤]، وقال جلّ شأنه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٣-٤٥].

٣٠. سقوط الدول والممالك بسبب الاستحقاق، لا كما يقول ابن خلدون.

من أظهر السنن التي يحصل بها الإدكّار، وأحراها بالمعرفة والاعتبار: تلك المتعلقة بحياة البشر، وقيام الممالك والدول، وظهورها، ثم سقوطها. والعبرة بجريان هذه السنة لا يكون بتعاقب الأجيال والزمان ـ كما قال بن خلدون ـ وإنما باجتماع الظلم والجهل والنسيان، فإنّ اجتماعها برهان على تضييع الأمانة، وبتضييعها تزول أهلية البقاء والملك، وتلك السنّة الجارية

على الحقيقة لمن أراد الاعتبار، لا احتساب سنوات الأجيال، وموازنتها بأعمار النمو والنشوء للرجال[1].

والمقارنة بين أعمار الدول وأعمار البشر لها عموم وخصوص، وإجمال وتقييد، والأصل الذي يجري على الجميع سنة أخرى قائمة لا تنفك عن طبيعة الدنيا ذاتها، وهي تخالف ما ذكره ابن خلدون كذلك، فعن عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ وسلم قال: «حقّ على الله أن لا يرفع شيء نفسه في الدنيا إلا وضعه الله»[2]، فجعل الوضع في الدنيا رديف الرفعة لا السقوط، والزوال مقترن بأوج الظهور، وتلك السنّة الجارية الأظهر، وجريانها هو الأشهر من حيث تعلقها بكل ما ارتفع من الدنيا.

إذا تمَّ أمرٌ بدا نقصُه توقَّعْ زوالاً إذا قيل تمّ

وكتاب الله تعالى يقضي بهذه السنة ويؤكد عليها، فزوال مُلك عاد، وثمود، وغرق آل فرعون، وقوم نوح، ومحق أصحاب الأيكة، وقوم لوط، كان في أوج قوتهم وعتوّهم، ولا عبرة فيه بدوران الزمان ولا جريان الأجيال حتى يوافي القوم لحظة ضعف يكون معها المحق، بل لمّا وافى القومُ أسباب

---

(١) جعل ابن خلدون في مقدمته للدولة عمراً طبيعياً كما للأشخاص، بقوله: الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته... وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة، ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده، إلا إن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب، فيكون الهرم حاصلاً مستولياً والطالب لم يحضرها، (مقدمة ابن خلدون، ص: ٨٦).

(٢) سنن النسائي، (٦/ ٢٢٨). قال الألباني: حديث صحيح.

هلكتهم بتضييع الأمانة وزول أهلية البقاء والملك قصمهم الله تعالى في أوج قوتهم، وبهذا يكون الاعتبار حقاً، وبه يحصل الادكار؛ لا بإهلاك الضعيف وزوال الملك المتهالك الذي لو تركته لزال بنفسه، قال الله جلّ جلاله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[فُصِّلَت: ١٥]؛ والعبرة بممالكهم التي غودروا منها، ومساكنهم التي تحولوا عنها رادع لكل مغتر بأسباب قوته، وتوارد الحفظ في أعضاء بدنه، أو أرجاء مملكته، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[الروم: ٩]. والمعنى: ألا ترون مَن حولكم في مسيركم، وتبصروا عظيم ممالكهم، ومظاهر القوة والتمكين في مساكنهم فتعبرون بتخطّفهم من ديارهم، وجريان صروف الردى في أوج قوتهم! ؟

ولما كانت أعمار الأفراد قصيرة ـ مقارنة بأعمار الممالك والدول ـ وأحوال التغيّر تجري عليهم بشكل أظهر، وتؤثر فيهم بدرجة أكبر أصبح طول السلامة بالنسبة لهم مؤشر لحصول العَطَب، ودوام الصحة مؤذن بقرب الردى، على حد قول الأول:

يودُّ الفتى طول السلامة والغنى فكيف ترى طول السلامة يفعل

وقول الآخر:

كانت قناتي لا تلين لغامزٍ فألانها الإصباحُ والإمساءُ
ودعوت ربِّي بالسلامة جاهداً ليُصحِّني فإذا السلامةُ داءُ

ويجري على المجتمعات والدول من السنن الكونية المرتبطة بأسباب القوة والضعف والفناء ما يجري على الأفراد؛ فإذا تعاطى الصحيح بيده أسباب الموت جرت عليه سنة الفناء وإن كان في أوج القوة، وإذا تعاطى السقيم أسباب حفظ الصحة طالت سلامته، وامتدّ عمره، وقدر الله يجري على هذا وذاك، والجميع إلى زوال. وهكذا الشأن في قوة الدول والممالك وضعفها وزوالها بالإعداد وفق أسباب القوة والعلم، أو باستحكام العجز والجهل والكسل.

وإذا كانت أسباب البقاء والفناء تجري على السنن الكونية للأفراد والدول والمجتمعات فإنّ سنة الله تعالى الشرعية أولى وأحرى، بل هي المقدم من الأسباب، والمعتبر في التحصيل والاكتساب، وأشرف السنن الشرعية قدراً وأبركها أثراً: إرادة الرّب جلّ شأنه الخير بخلقه، وإيصال النفع لهم، وهدايتهم سبل النجاة، وفرحه بتوبتهم وحبه لإنابتهم، وسبق رحمته بهم غضبه، مع غناه سبحانه عن تعذيبهم وإهلاكهم إن هم أقاموا أمره، واتبعوا رسله، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾[النساء]. في المقابل تجري سنته الأخرى فيمن تعرض لأسباب سخطه، وتعاطى بيده أسباب هلكته،

وإن كان في أوج قوته، قال الله جلّ شأنه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٧ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فُصِّلَت: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠].

٣١. الاعتبار والتدبّر من أهم مقاصد إرسال الآيات وتكرار السنن.

أعظم مقصود لإظهار السنن: أن يعرفها الإنسان، ويتدبرها، ويستوعبها، ويستفيد منها. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، أي: سنن الذين أنعم الله عليهم من قبلكم، من النبيين وأتباعهم، في سيرهم الحميدة، وأفعالهم السديدة، وشمائلهم الكاملة، وتوفيقهم التام. فلذلك نفذ ما أراده، ووضح لكم وبين بيانا كما بين لمن قبلكم، وهداكم هداية عظيمة في العلم والعمل(١).

ويزداد التأكيد على ضرورة الاعتبار بالسنن، ومعرفتها، والعمل بموجبها إذا كان الحال يقتضي ذلك؛ من حصول التغير في الأمن، والمعاش، ونقص الأموال، وذهاب الأخيار، وتكالب الأعداء، ونحوها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران].

(١) تفسير السعدي، (ص: ١٧٥).

قال السعدي رحمه الله: وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة أحد، يعزّي تعالى عباده المؤمنين ويسلّيهم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة، امتُحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومجاولة، حتى جعل الله العاقبة للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين، وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم. ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، بأبدانكم وقلوبكم: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل؟ وحكمة الله التي يمتحن بها عباده، ليبلوهم، ويتبين صادقهم من كاذبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: دلالة ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين(١).

٣٢. العمل بالأسباب لا ينافي التوكل على الله تعالى.

التوكل الشرعي في حقيقته: اعتماد كامل على الله تعالى، وثقة بكفايته لعبده، مع مباشرة الأسباب المشروعة أو المباحة التي جعلها الله سبحانه مفضية إلى مسبباتها. ومصداقه ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم توكلون على الله تعالى حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»(٢).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ١٤٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم، وهو في صحيح الجامع (ح ٥٢٥٤).

غير أنّ الأسباب ليست مستقلة بذاتها، وهذا مصدر تفوق المسلمين، وإليه يرجع استقرارهم النفسي والمعنوي دون غيرهم؛ فهم يبذلون الأسباب على أرفع وجه، ثم يكلون النتائج لمسببها سبحانه، ويرضون بالقدر خيره وشرّه. قال شيخ الإسلام بن تيمية: ليس شيء من الأسباب مستقلا بمطلوب، بل لا بد من انضمام أسباب أخر إليه، ولا بد أيضاً من صرف الموانع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود. وكل سبب فله شريك، وله ضد، فإن لم يعاونه شريكه، ولم يصرف عنه ضده، لم يحصل سببه، فالمطر وحده لا يُنبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء، والتراب، وغير ذلك. ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذّي إلا بما جعل في البدن من الأعضاء والقوى[1].

وعلى هذا فالتخلف والاستضعاف ليس قَدَراً نازلاً، وسببه في واقع الأفراد والدول والأمم: تخلفهم عن امتلاك أسباب بعينها، مع وجود صوارف وموانع بعينها. فإذا رأيت أفراداً ومجتمعات ودولاً خاملة مستضعفة مقلدة من هذه الأمّة التي جعل الله تعالى قدرها الريادة والشهود على الناس فاعلم أنّ السبب هوانهم على الله تعالى بترك التوكل عليه والثقة فيما عنده، أو هوانهم على أنفسهم بعدم بذل الأسباب والنزوع إلى الجهل والفرقة بدلاً من طلب العلم النافع والتمسك بالحق الجامع. قال البشر الإبراهيمي رحمه الله: المسلمون كثير، ولكن التفرّق صيّرهم قليلا مستضعفين في الأرض،

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٦٧).

يشقَون لإسعاد غيرهم، ويموتون في سبيل إحياء عدوّهم، وانها لخطة من الهوان يأباها أكثر الحيوانات العجماء، فكيف الخلائق العقلاء. ولو صدقت نسبة المسلمين إلى الإسلام، وأشربوا في قلوبهم معانيه السامية ومُثله العليا، واتّخذوا من كتابه ميزانًا، ومن لسانه العربي ترجمانًا، واتّجهوا إلى هذا الكتاب الخالد بأذهان نقية من أوضار المصطلحات، وعقول صافية لم تعلق بها أكدار الفلسفات، لسعدوا به كما أراد الله، ولأسعدوا به البشر كما أمر الله، ولأصبح كل مسلم بالخير والصلاح سفيرًا، ولكان المسلمون في أرض الله أعزّ نفرًا، وأكثر نفيرًا، ولكان التقاء المسلم بالمسلم كالتقاء السالب بالموجب في صناعة الكهرباء ينتج النور، والحرارة، والقوة[1].

٣٣. صلاح الدين بمعرفة السنن التي حكم الله تعالى بعدم تبدلها.

إذا صحّ لعلماء المادة أن يتحدثوا عن أسباب ظهور الآيات والآثار الناجمة عن تبدّل حركة الكون، واستشراف مواعيد الكسوف والزلازل ونحوها باستخدام دراساتهم، ومناهجهم التجريبية، وأدوات رصدهم المادية، وإذا صحّ للساسة وعلماء الاقتصاد والتربويين وغيرهم أن يجتهدوا في التعرف على السنن المتعلقة بمجال تخصصهم في دائرة اهتمامهم فإنّ علماء الشريعة تناط بهم مسؤولية النظر في سنن الله تعالى في الكون والأنفس، وربطها بشريعته المحكمة العادلة، والمقاصد الكلية التي أمر بحفظها، مع استحضار

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٤/ ٦٠)

العواقب التي حلّت بالأمم السابقة جراء مخالفتها، واستشراف مستقبل هذه الأمة بالتخطيط لأفرادها ومجتمعاتها، وإرشادهم لطرق الريادة والتمكين التي يقوم عليها مضمار التنافس المادي اليوم، والوقاية من أسباب العقوبة والخذلان، مع تزويدهم بأخلاقيات العمل الجاد لبذل ما في الوسع.

ومن بين سنن الله تعالى التي حكم بعدم تبدلها أربعة ظاهرة، عليها مدار صلاح الدين، واستقامة أهله: سنّة التدافع بين الحق والباطل، وسنّة نصر المؤمنين على عدوهم إذا تحققت فيهم مؤهلات النصر، وسنّة تعجيل العذاب بمن استكبر وصدّ عن الحق بما يظهر من مكر وخداع، وسنّة إيقاع العقوبة بالظالمين، وبمن أراد الإخلال بالمجتمع المسلم. وبيانها كما يلي:

٣٤. سنة التدافع قائمة ما وُجد حقّ وباطل.

سنّة المدافعة بين الحق والباطل قائمة ما بقي حق وباطل على وجه الأرض. ولازم التدافع بينهما: الذود عن الحِمى حتى لا يحدث التقارب والمشاكلة، ولو اقتضى ذلك القتال والمواجهة.. يُدال لهذا فترة، ويُدال لهذا أخرى. ومدافعة الباطل يحبها الله تعالى، وإن كانت مكروهة للنفوس لما فيها من المشقّة والجهد، قال الله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. قال ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي: شديد عليكم ومشقة. وهو كذلك فإنه إما أن يُقتل، أو

يُجرح، مع مشقة السفر، ومجاهدة الأعداء[1]. وقال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

والمدافعة صيغة مفاعلة تقتضي الاستدامة والإعداد والحذر. وجريان هذه السنة ودوامها يؤكده الأمر الرباني للمؤمنين بمواصلة الإعداد، وعدم الركون إلى العدو، والعمل على إرغامه بكل قوة ممكنة، قال الله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال الله عز وجل مبيناً بعض ثمار المدافعة ونتائجها: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ (البقرة: ٢١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج: ٤٠]

وجريان هذه السنة يؤكده الأمر الصادر للمؤمنين بمواصلة الإعداد، وتحذيرهم من الركون إلى عدوهم، والسعي لكفّ شّره بكل سبيل. قال الله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ [الأنفال: ٣٦].

(١) تفسير ابن كثير، (١/ ٢٣٩).

٣٥. ابتلاء المؤمنين بالشدائد وتمحيصهم سنة قائمة.

من سنن الله تعالى قُبيل تمكين المؤمنين الصادقين: تمحيصهم، وابتلاؤهم بالشدائد التي يقدّرها عليهم ليرفع بها من درجاتهم، ويكفّر من سيئاتهم، ويمحّص صفوفهم، ويقوّي عزائمهم، ويكشف عدوهم. قال جلّ جلاله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، وقال سبحانه: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. قال أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في معركة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد[١].

وعلى قدر الإيمان والثبات يكون البلاء، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[٢]. وقد أخبرت أمّ سلمة ‘ عما جرى لهم يوم الخندق من الشدّة بقولها: شهدتُ مع النبي ﷺ مشاهد فيها قتال وخوف: المريسيع وخيبر، وكنّا بالحديبية، وفي الفتح وحنين، لم يكن ذلك أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق؛

(١) تفسير القرطبي، (٣/ ٣٤).

(٢) سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (حديث: ٢١١٠).

وذلك أنّ المسلمين كانوا في مثل الحَرَجة ـ أي في ضيق وشدّة ـ وأنّ قريظة لا نأمنها على الذراري، فالمدينة تُحرس حتى الصباح، نسمع تكبير المسلمين فيها حتى يُصبحوا؛ خوفًا، حتى ردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً[1].

٣٦. زوال البأساء مقترن بتحقق الصبر والتقوى.

زوال البأساء بالصبر والتقوى سنة مضطردة لا تتخلف، أوصى الله عزّ وجلّ بها أولياءه المؤمنين كثيراً في كتابه العزيز، وقرنها على وجه الخصوص في سياق الحديث عن أسباب زوال كيد الأعداء، ورفع الضرّ والبأساء، وتحقق الحفظ من كل مكروه، والأمن من كل مخوف. قال الله عز وجل ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٥].

وتحقق الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على الأقدار المؤلمة، مع لزوم التقوى التي تقتضي فعل الأوامر وترك المناهي: من أعظم وسائل الثبات على الحق، ودفع كيد الأعداء، فإذا اجتمع له ألفة أهل الإسلام، وتعاونهم وتراحمهم، فما أسرع ما يُستجلب النصر، ويتحقق

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي، (١/ ٢٣٠).

التمكين في الأرض، قال الله عز وجل: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]. قال الطبري رحمه الله: فالأعداء إذا رأوا من أهل الإسلام أُلفة وجماعة وظهورا على عدوهم غاظهم ذلك، وساءهم، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافاً أو أصيب طرف من أطراف المسلمين سرّهم ذلك وأعجبوا به وابتهجوا به، فهم كلما خرج منهم قرن أكذب الله أحدوثته، وأوطأ محلّته، وأبطل حُجته، وأظهر عورته؛ فذاك قضاء الله فيمن مضى منهم، وفيمن بقي إلى يوم القيامة. إلى قوله في تفسير كلام الحق جلّ ثناؤه: وإن تصبروا أيها المؤمنون على طاعة الله، واتباع أمره فيما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه، من اتخاذ بطانة لأنفسكم من هؤلاء اليهود من دون المؤمنين، وغير ذلك من سائر ما نهاكم، وتتقوا ربكم فتخافوا التقدم بين يديه فيما ألزمكم وأوجب عليكم من حقّه وحقّ رسوله لا يضركم كيدهم شيئاً[١].

٣٧. غلبة الحق، والتمكين لأهله عند اكتمال مؤهلاتهم: سنّة جارية.

من سنن الله تعالى القائمة: غلبة الحق على الدوام، دون اعتبار حال أهله، وانتصار أهل الحق على أعدائهم إذا صدقوا ربهم، والتمكين لهم عند اكتمال مؤهلاتهم الدينية والدنيوية، فإن لم تكتمل حُجب عنهم، وإن نالهم في سبيله

(١) تفسير الطبري، (ج٤/ ص٦٨).

ما نالهم. قال الله جلّ شأنه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١]. وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۝٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣]، فأخبر أن أعداءه مخذولون، مغلوبون، وأنهم لو قابلوا المؤمنين الصادقين وقاتلوهم: ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾، يتولى أمرهم، ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ ينصرهم، ويعينهم على قتالكم، وتلك سنة الله في الأمم السابقة[1]. وكما أنّ هذه السنّة لا تتبدل ولا تتغير في ساحات القتال المادي، فإنها تجري كذلك في غيرها من مجالات التنافس الحضاري.

والسنن يغالب بعضها بعضاً، فسنة الله تعالى الشرعية القاضية بنصر أوليائه، وكبت أعدائه قاضية على السنّة الكونية المتمثلة في غلبة الكثرة على القلّة إذا استجمعت مؤهلات النصر المادية. ومما يشهد على مغالبة السنن: وعد الله تعالى لأوليائه بمدد السماء، ومظاهرتهم بجنود السماوات والأرض إذا استقاموا على أمره، واستحقوا معونته، رغم قلتهم، وضعف إمكاناتهم في مقابل عدوهم.

وجند الله تعالى لا يقاتلون بالعدّة والعتاد فحسب، وميزان القوّة عندهم لا يتعلق بالكثرة أو القلّة، وإنّما بالثقة في نصر ربّهم إذا نصروه، واعتقادهم

(١) تفسير السعدي، (ص: ٧٩٤)، بتصرف.

الجازم بعدالة قضيتهم، وبالخذلان الذي تكفّل به لعدوهم، وصدقهم في بذل الوسع لاستجلاب أسباب القوة المادية الممكنة. وانتصارات المسلمين الحاسمة على عدوهم ـ قديماً وحديثاً ـ شاهدة بذلك. قال رجل لخالد بن الوليد رضي الله عنه في يوم اليرموك: ما أكثر الرّوم وأقلّ المسلمين! فقال خالد: بل ما أقلّ الرّوم وأكثر المسلمين! إنّما تكثُر الجنود بالنصر، وتقلّ بالخذلان، لا بعدد الرجال[1].

ولا يُمنع بعد كل ذلك من حصول الأذى والألم الذي هو محصلة الكرُه المشار إليه في سنة التدافع السابقة، ولذا حذّرهم الله تعالى من ترك مدافعة عدوّهم اتقاء لما ينالهم من الأذى، بقوله جلّ شأنه: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[النساء: ١٠٤]، وقال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة: ٢٥١].

والغلبة والتمكين ليسا حِكراً على مجالات المدافعة العسكرية، بل يشمل كل ساحات المواجهة الأخرى: الاقتصادية، والإعلامية، والتعليمية ونحوها.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري، (٣/ ٣٩٨).

٣٨. تخلّف النصر، وحجب التمكين علامة على عدم اكتمال مؤهلات أهله.

في مقابل التمكين لأهل الحق إذا استجمعوا مؤهلات النصر.. تمضي سنة الله عز وجل الكونية إذا تخلف المؤمنون عن مؤهلات النصر بأن خالفوا أمر ربهم، وافترقت كلمتهم، وتبدّلت نياتهم؛ ذلك أنّ الله تعالى ليس بين وبين أحد من خلقه عهد بالتمكين والنصر ما دام قائماً على أمر يخالف أمره، أو كان عازماً على فعله حال القدرة عليه.

وقد يحصل النصر ثم يُحجب التمكين رحمة بصاحبه وإن كان أهلاً له ـ فرداً أو جماعة ـ لعلم الله تعالى بعدم قدرته على مصاولة الباطل، وعجزه عن تحمّل المشاقّ التي ستناله في أعقاب ذلك التمكين، أو لعدم استكماله (مؤهلات التَّبِعات)، ومنها صدق العزيمة على تطبيق شرع الله تعالى وإقامة أمره، والاستعداد بالقدرات المادية التي لا يحصل ذلك التمكين إلا بها.

وإذا تخلّف السند الشرعي ـ بسبب مانع من موانع النصر ـ استوى الطرفان، ومضت سنّة الله الكونية القاضية بغلبة الأقوى عُدّة والأكثر عددا. وشواهد ذلك ظاهرة قديماً وحديثاً. قال الله تعالى مخبراً عما حصل لأوليائه يوم أحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٥-١٦٦]. وقال سبحانه مذكراً أوليائه، وممتناً بما وقع لهم يوم حنين: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ

وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة:٢٥-٢٦]. وقد كانوا يومئذ اثني عشر ألفا وعدوهم أربعة آلاف، فقال رجل يومئذ: لن نُغلب اليوم من قلة، فشقّ ذلك على النبي ﷺ[١].

٣٩. إبطال عمل المفسدين سنة دائمة.

أخبر الله عز وجل بأنه لا يحب المفسدين ولا يُصلح أعمالهم بقوله جلّ شأنه: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١]، كما أخبر سبحانه عن سنة المدافعة والمداولة بين الحق والباطل وأنها قديمة قِدم التاريخ البشري نفسه، ينتفش فيها الباطل تارة، ويندحر تارات. ولا أنفع في مواجهة الباطل حال انتفاشه واستعلائه من لزوم الحكمة والصبر، وعدم التهور لاستعجال كسب جولة واحدة من جولات المواجهة الكثيرة مع الباطل، دون اعتبار لسنن المداولة، أو استشراف لمستقبل الصراع. قال أبو زرعة رحمه الله: كتب إليّ إسحاق بن راهويه رحمه الله يقول: لا يهولنك الباطل، فإن للباطل جولة ثم يتلاشى[٢].

كما جرت سنة الله عز وجل في الباطل إذا تمّرد واستطال، وتعاظم شره: أن يُنزل عليه قارعة كونية، أو يسلّط عليه أهل الحق من عباده فإذا هو زائل لا أثر له. ومِن تمرُّد الباطل وتعاظُم شرّه: سعيه بالإفساد في الأرض، وإشعال

(١) إمتاع الأسماع، (٨/ ٣٨٩).

(٢) الجرح والتعديل، (١/ ٣٤٢).

الحروب بين الحين والآخر، قال الله جلّ شأنه مؤكداً كبته للأشرار، وإطفائه لنيران الحرب التي يوقدوها، والحكم بالخسارة والبوار على المكائد التي يُحيكوها، والأعمال التي يُفسدوها: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]. ولعظيم محبته جلّ شأنه لمحق الباطل أخبر بأنه الذي يقذف بالحق وإن كان ضعيفاً، ليُزهق به الباطل وإن كان قوياً منيعاً، بقوله سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٨-١٩].

٤٠. من السنن القائمة: تعجيل العذاب بمن استكبر، وصدّ عن الحق.

من بين أحوال المكذبين وصفاتهم خصّ الله تعالى حالاً منها بتعجيل العذاب، ألا وهي اجتماع المكر والخداع في أكابر المنافقين الذين يصدّون عن سبيله، ويحاربون أوليائه، ويلجأون إلى أساليب المكر والخداع لتحقيق مآربهم، والتمويه على العامة بالأيمان المغلظة في أنهم لا يريدون من فعلهم إلا الحق، ولا يطمحون إلا للإصلاح، فإذا ظهر أمرهم، وانكشفت مقاصدهم واستبان الحق نكثوا أيمانهم واستفشى إجرامهم، وتمادوا في باطلهم. قال الله تعالى مخبراً عن سنته في هؤلاء: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى

ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٢-٤٣]. وليس إقسامهم لقصد حَسَن، وطلب للحق، وإلا لوفقوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق، وعن الحق، يريدون به المكر، وخداع الناس بأنهم أهل الحق، الحريصون على طلبه، ليغتر بهم المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، فمكرهم إنما يعود عليهم، بعدما أبان اللّه خزيهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، ولم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سنة اللّه في الأولين، لا تتبدل ولا تتغير[1].

٤١. كبت الباطل أو قطعه سُنّتان مردّهما فساد الباطل واستشراء شره.

زوال الباطل كائن لا محالة، وهو سنّة قائمة لا تتخلف، ولا تخرج عن صورتين اثنتين: زواله بالكبت أو بالقطع بحسب فساد الباطل نفسه، واستشراء شره فيمن حوله. قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ [آل عمران]. قال قتادة رحمه الله: قطع الله يوم بدر طرفـًا من الكفّار، وقتل صناديدهم ورؤساءهم وقادتهم في الشر. وقال بن جرير رحمه الله: تأويل الكلام: ولقد نصركم الله ببدرٍ؛ ليُهلك فريقـًا من الكفار بالسيف، أو يُخزيهم بخيبتهم مما طمعوا فيه من الظفر، ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾، أي: فيرجعوا عنكم خائبين، لم يُصيبوا منكم شيئا مما رجوا أن ينالوه منكم[2].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٩١).

(٢) تفسير الطبري، (ج٤/ ص٨٥).

ولـكلٍ مـن كبـت الباطـل أو قطعـه خصائـص يحسـن مراعاتهـا؛ فالمحـق بالكبـت يتحقـق معـه الحيلولـة دون تحقيـق أهـداف العـدو وبلـوغ مـراده، فـتراه يتجـرّع مـرارة الخـزي والخـذلان كلمـا خطـط للقضـاء علـى الحـق وأهلـه، والمحـق بالقطـع يتـم باسـتئصال الباطـل واجتثـاث ذاتـه الخبيثـة في الداخـل أو الخـارج بعقوبـة كونيـة ماحقـة، أو بأيـدي المؤمنيـن في سـاحة المعركـة. وعلـى الرغـم مما يصيب المؤمنيـن إلا أنّ العاقبة لهـم، والخزي والبوار على عدوهـم. ذلكـم مـا وعـد بـه ربّهـم بقولـه جـلّ شـأنه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩-١٤١]، وقولـه عـز وجـل: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال:٧-٨].

٤٢. محق الباطل بأيدي المؤمنين أحبّ إلى الله من محقه بالآيات الكونية.

أخبر الله تعالى أن محق الكافرين بسيوف المؤمنين أحبّ إليه من محقهم بالآيات الكونية، وعدّ ذلك من أحبّ العقوبات في ميزان الشرع وأرفعها، بل قرنـه بذاتـه العليّـة في قولـه جـلّ شـأنه: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[التوبـة: ١٤]. ومـن حـبّ الله تعالـى لهـذه العقوبـة الشـرعية الرفيعـة لقطـع الكافريـن أرصـد للآمريـن

بالمعروف والناهين عن المنكر، وللمجاهدين في سبيله من الفضل والشرف والمكانة في الدنيا والآخرة ما لم يرصده لغيرهم، بل جعل القتل في سبيله هو البيع الرابح وأخبر أنّه سبحانه المشتري لهذه النفس الطاهرة التي قضت في سبيله لمحاربة أعدائه، وأنّ الثمن الذي أرصده: الجنة بدرجاتها، وسعة نعيمها، قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[التوبة: ١١١].

ومن عجيب محبّة الله تعالى لمحق الباطل بجند المؤمنين دون غيرهم: أمرُه جلّ شأنه بتنزّل ملائكة السماء يوم بدر بلباسهم وزِيّهم، وأن يتشبّهوا بحالهم في المعركة، ويلبسوا لأمتهم في الحرب، ويركبوا الخيل ويتقلّدوا السيوف، ويرموا بالحراب، ويخوضوا الحرب مثلهم، مع أنهم جند الله الأعظم الذي لا يحتاج لتحقيق النصر إلى شيء من هذه المماثلة! بل الأعجب أنّ يتعلّق شرف الملائكة عند ربّهم بعد ذلك بتلك المشاركة والمماثلة في محق الكافرين يوم بدر!![1]. عن رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله عنه، وكان من أهل بدر قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «ما تعدّون أهل بدر فيكم، قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد

(١) مزيد تفصيل لهذه المسألة في كتاب منشور للمؤلف بعنوان: المدينة المحاصرة.

بـدرا مـن الملائكـة»[1]. وهكـذا الشـأن والله أعلـم في تفاضـل أجنـاس جنـود الله تعالـى الأخـرى مـن الريـاح والميـاه ونحوهـا.

٤٣. إيقاع العقوبة بمن أراد الإخلال بالمجتمع المسلم سنة لا تتبدل.

أخـبر الله تعالـى عـن سـنته في (الخَبَـث) الـذي يسـعى لزعزعـة المجتمـع المسـلم، ويعمـل علـى توهيـن عزائـم أفـراده، وتشـكيكهم في دينهـم، ويتمـادى في إفسـاد أفـراده بشـتى الصـور، فقـال جـلّ شـأنه: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحـزاب: ٦٠-٦٢].

وهـذه الطوائـف الثـلاث لا يخلـو منهـا مجتمـع مسـلم، وهـم يسـعون علـى الـدوام لزعزعـة المجتمـع، والنيـل مـن اسـتقراره، وتشـكيك أفـراده في دينهـم، وبـث الفرقـة بينهـم: المنافقـون، الذيـن يُظهـرون الإسـلام في العلـن، ويكيـدون لـه في الخفـاء، والذيـن في قلوبهـم مـرض الشـك في الإسـلام، أو مـرض الشـهوة، ويسـعون لنشـرهما في المجتمـع المسـلم، والمرجفـون الذيـن دأبهـم التنقّـص مـن الإسـلام وشـعائره، وتحقيـر أهلـه، والسـخرية منهـم، وتخويفهـم مـن أعدائهـم بذكـر قوتهـم، وكثـرة إمكاناتهـم الماديـة.

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٤٦٧).

وقد أخبر سبحانه عن سنّته الدائمة، وعادته الثابتة، وعقوبته الرادعة بهؤلاء جميعًا، وأنها جارية في كل زمان ومكان، إذا وُجدت أسبابها وظروفها المقتضية لها. وقوله جل شأنه: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك فلا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلا بأن تقتلهم أو تنفيهم. وفيه دليل على نفي أهل الشر الذين يُتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر، وأبعد منه، ويكونون: ﴿ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴾، أي: مبعدين، أينما وجدوا لا يحصل لهم أمن، ولا يقر لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يُحبسوا، أو يُعاقبوا[1].

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٧١)

رابعاً:

قواعد للتعرف على (الآيات) التي يرسلها الحقّ جلّ جلاله تذكيراً وإعذاراً لمن خالف أمره.

٤٤. الآيات: علامات يجريها الله في الكون لتعظيمه وتخويف عباده.

من رحمة الله تعالى أن جعل للعقوبات العامة مؤشرات، وعلامات، (وآيات) تتقدّمها ليفزع منها البشر إلى ربهم، ويقلعوا عن ظلمهم. والآيات جمع آية، وهي العلامة البينة الواضحة. وللمفسرين خمسة أقوال في معنى الآيات، الأول: أنها المعجزات التي جعلها الله سبحانه على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفا للمكذبين. الثاني: أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصي. الثالث: أنها تقلب أحوال الإنسان من صغر إلى شباب ثم إلى تكهّل ثم إلى مشيب، ليعتبر بتقلّبها، ويخاف عاقبة أمره. وهذا قول أحمد بن حنبل رحمه الله. الرابع: القرآن، والخامس: الموت الذريع. قاله الحسن(١). غير أنّ تقلب أطوار الإنسان، وتبدّل أحواله من الصغر إلى الشباب قد يكون آية تخويف، وقد يكون آية إنعام وامتنان، بخلاف آية الموت.

وقدّ أخبر الله جلّ جلاله بأنّه يسوق الآيات تخويفـًا للأمم والجماعات، إمّا بالإهلاك والفناء، وإمّا بإيقاع العذاب الأليم مع الإبقاء، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٨-٥٩]. قال السعدي رحمه الله: والمعنى: ما من قرية من القرى المكذبة للرسل إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد..

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٨١)، وزاد المسير، (٣/ ٣٤).

كتابٌ كتبه الله، وقضاء أبرمه، لا بد من وقوعه، فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله تعالى وتصديق رسله قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول[1].

وهناك معنى لطيف في الجمع بين معاني الآيات ذكره الزمخشري في تفسيره بقوله: إن أريد بها الآيات - أي الكونية - فالمعنى: لا نرسلها إِلَّا تَخْوِيفًا من نزول العذاب العاجل؛ كالطليعة والمقدّمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم. وإن أراد غيرها فالمعنى: وما نرسل من الآيات، كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفا، وإنذارا بعذاب الآخرة[2].

وخلاصة ما ورد في معنى الآيات يتضمن كونها: براهين خاصة لإقامة الحجة على أقوام مخصوصين، كما في المعجزات، أو علامات ونذر للأفراد لعلهم يرجعون؛ كما في الموت، والخوف، والمرض، والمصائب، ونحوها، وإما أن تكون براهين كونية عامة للتخويف، كما في الأعاصير، والصواعق، والبراكين، والزلازل، والفيضانات ونحوها.

ومما سبق يمكننا تعريف الآيات بأنها: العلامات الجلية الواضحة التي يجريها الله تعالى في الكون والأنفس؛ لإظهار عظمته، والتذكير بقدرته، وتخويف عباده، والإعذار ممن خالف أمره، واستحق عقوبته، من الأفراد، والجماعات؛ لعلهم يرجعون.

---

(١) **تفسير السعدي**، (ص: ٤٦١).

(٢) تفسير الزمخشري، (٢/ ٦٧٤)

وقد أدرك السلف هذا المعنى من التخويف بتغير حركة الكون من حولهم، ولذا لما رجفت الأرض في الكوفة على عهد ابن مسعود ﵁، قال: يأيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه[1]. وعن نافع، عن صفية ﵂ قالت: زلزلت المدينة على عهد عمر ﵁، فقال: أيها الناس ما أسرع ما أحدثتم، لئن عادت لا أساكنكم فيها[2].

٤٥. الآيات الكونية منها ما يمكن التنبؤ به، ومنها الفجائي.

الآيات الكونية علامات كبرى، ظاهرة ومشاهدة لا ينكرها أحد، وتحدث بسبب اضطراب القشرة الأرضية، كالرّجفة، والدخان، أو تغيّر في حركة الكواكب العلوية كالشمس، والقمر. ويمكن تقسيمها بهذا الاعتبار إلى قسمين: الأول: آيات كونية ثابتة، يمكن اكتشافها والتنبؤ بها، والتعرف على مواقيتها الزمنية والمكانية، بما استحدث الإنسان من أدوات رصد الكون ودوران أفلاكه، وبما أتقن من معرفة حركة الكواكب والرياح وتغير الظواهر المادية. والثاني: آيات كونية فجائية الحدوث، لا يمكن للبشر التنبؤ بها، ولا معرفة شدّتها، ولا مكان وزمان وقوعها.

وإذا كان التخويف متعلقاً بكلا النوعين فإنّه في النوع الأول خوف مصحوب بتعظيم، يتجه صوب الآية نفسها، للتفكر في عظمة الله تعالى جرّاء النظر في حركة هذه الظواهر الكونية العلوية والسفلية، والنظر في أسباب جريانها،

---

(١) تفسير الطبري، (١٧/ ٤٧٨).

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٤/ ٢٩٥)

وتبدّل مواقيتها، ونحو ذلك، فإذا تغيرت أو اضطربت تولّد الخوف من جراء ذلك، بينما يتجه النظر في النوع الثاني صوب الأثر الناجم عن تغير حركتها، وما يصحب ذلك من قطع منافع الناس، وتبدل أحوالهم زماناً ومكانا، ولذا فهو أبلغ في التخويف؛ لأنه مصحوب برهبة وفزع.

وحركة الإنسان - منذ القِدم - تتوافق مع حركة الآيات في الكون من حوله؛ فإذا تغيرت عليه طبيعة جريانها، واختلّ أمامه نظامها، وتبدّلت أحوالها العلوية والسفلية أصابه الهلع والخوف، وأخذ يبحث عن الكيفية والسببية معاً، فإذا تدبّر مقصود الآيات، والغاية من إرسالها فإن أحواله سريعاً ما تصلح، ويقلّ أو يزول ظلمه وإفساده.

وكم صرف التفسير المادي للآيات الناسَ عن الغاية من إرسالها، وأفسد طغيان المنهج التجريبي المادي تصوراتهم ومن ثم تفاعلهم المطلوب؛ فبدلاً من الخوف والرهبة، وإعلان الندم والاستغفار والفزع إلى الله تعالى عند تبدّل حركة الآيات وتغيّر نظام الكون تجد أكثرهم في مواطن تنزّل الآيات لاهين غافلين: يضحكون، ويلعبون، ويأخذون الصور التذكارية، ولا يرون بأساً من التجول والترويح عن النفس، أو اقتراف الحرام في ديار المعذبين!

وكم أصبح إيمان الناس بالمحسوسات المشاهدة أعظم بكثير من إيمانهم (بالغيب)، وهو ما يفسر انصرافهم عن تفقد أحوالهم، وإصلاح ما فسد من عقائدهم وعباداتهم حينما يضطرب نظام الكون من حولهم، بل بات همهم

الأكبر عند تنزّل الآيات: البحث عن (كيفية) الحدوث، بدلاً من التعرّف على أسبابه الحقيقية، والواجب القيام به لرفع نُذر العذاب. وبسبب هذا التفسير المادي تبلّدت أحاسيسهم، واستحكمت غفلتهم، وقست قلوبهم، حتى باتوا يسخرون ممن يؤمن بالغيبيات، ويتندّرون بمن يعدّ الانحراف في واقع الأفراد سبباً لنزول الكوارث والأزمات.

وحال المشركين في هذا الزمان كحال أولئك الغافلين، بل شركهم أغلظ من شرك الأولين ـ كما يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ـ لأن الأولين كانوا يشركون في الرخاء ويُخلصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم في الرخاء والشدة[1]، ولا يعرفون ربهم حتى في حال الكربة فضلًا أن يعرفوه في حال الرخاء والسعة، وينصرفون عن دعائه إلى دعاء غيره حتى وهم يشاهدون نُذر العذاب ونزول العقاب.

٤٦. تنزّل الآيات يقترن بجملة من الحِكم والغايات.

يقترن تنزل الآيات بجملة من الحكم الغايات أخبر الله تعالى عنها ورسوله ﷺ. والتعرف على هذه الغايات خير معين على تجنّب أسباب العقوبة، واستشراف وقوعها، وتقدير خطورتها، وإحسان التعامل معها.

ورحمة الله تعالى بخلقه تظهر في معرفة الغايات من إرسال الآيات والعقوبات؛ فالله تعالى يحبّ إقامة الحجة على من خالف أمره، ولا يعاجله

(١) ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع (ص: ٤٧).

العقوبة إلا بعد إمهال وإعذار، وهو ما يظهر بجلاء عند التأمل في توقيت إرسال الآيات والغاية منها؛ حيث يرسلها الله تعالى مقدمة بين يدي العقوبة، ولا يراد منها سوى: التخويف، أو التأديب، فإذا لم يُنتفع بها تنزّلت العقوبة بعد ذلك للانتقام والتعذيب، وبسببها تضطرب أحوال الأفراد والجماعات، ويتفرق جمعهم، ويُشتت شملهم، وتذهب منافعهم.

وهذه الغايات الثلاث: التخويف، والتأديب، وإيقاع العقوبة تدرج منطقي يلجأ إليه حتى البشر لتقويم سلوك من يتولون أمره من ذرياتهم أو رعاياهم أو حتى موظفيهم؛ حيث يبدأون بالتخويف ولفت النظر، فإذا لم يرتدع المخالف لجأوا لخطوة أرفع في التهديد بالحسم أو التلويح بالسوط والعصا ونحوها، فإذا لم يجدي ذلك اتخذوا مسلك الحسم بإيقاع العقوبة. وشأنُ الله تعالى مع خلقه في المسارات الثلاث: أعظم، وأرحم، وأعلم وأحكم.. جلّ جلاله، وتقدست أسماؤه. وبيان هذه الغايات كما يلي:

٤٧. الآيات تتنزّل للتخويف.

التخويف هو الحلقة الأولى في مسلسل الإعذار والإمهال لمن حقّ عليه العذاب. ومع أنّ التخويف يحدث بتغيّر أحوال الفرد، واضطراب حالته من الصحة إلى السقم، وتغيّر مجتمعه من الأمن إلى الخوف، ومن الرّغد إلى الشحّ والغلاء، ومن التراحم إلى التباغض، إلا أنّ أعظمه ما يصحبه اضطراب كوني على وجه غير معهود، لا يُنكره أحد، تتغير فيه حركة الكواكب العلوية كالشمس والقمر، وتتحرك القشرة الأرضية، وتشتدّ الرياح، ويرتفع الموج

بشكل ظاهر يفزع منه الناس، وتضطرب بسببه أحوالهم. عن أبي مسعود الأنصاري وغيره ﷺ أن النبي ﷺ قال يوم انكسفت الشمس: «إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، يخوف الله بهما عباده، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس، فإذا رأيتم منها شيئا فصلّوا، وادعوا الله حتى يكشف ما بكم»[1].

ومن هوان الكافر على ربّه: عدم إدراكه لرسائل التخويف التي يبعثها إليه مولاه، وخلو ذهنه مما يجب عليه لاسترضائه واستجلاب رحمته. ومن كرامة المؤمن أنه لا يحتاج لأكثر من هذا التخويف لإصلاح أمره، والإقلاع عن ذنبه؛ حيث يتساءل ويتفكّر في الذنب الذي بسببه سُلّطت عليه وعلى الناس من حوله آيات التخويف تلك، وبسببها يعلن توبته، ويفزع للصلاة حتى تنجلي الغُمّة وتعود الأمور لسابق عهدها. قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٨-٥٩]. قال قتادة رحمه الله في هذه الآية: إن الله يخوّف الناس بما شاء من آياته لعلهم يعتبون، أو يذّكرون، أو يرجعون[2]. قال السعدي رحمه الله: والمعنى: ما من قرية من القرى المكذبة للرسل إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب

(١) صحيح مسلم، (٢/ ٦٢٨).

(٢) الدر المنثور، (٥/ ٣٠٨).

شديد: كتاب كتبه الله، وقضاء أبرمه، لا بد من وقوعه، فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله وتصديق رسله قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول[1]. عن حذيفة ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صَلَّى[2].

٤٨. تتنزّل الآيات للتأديب.

التأديب غاية ثانية من إرسال الآيات والعقوبات بالأفراد والجماعات، وهو درجة أرفع من التخويف، وأقلّ من الانتقام ونزول العذاب. والتأديب يحدث بإرسال آيات التخويف مقرونةً بنوع عقاب، لكنه عقاب استبقاء لا فناء، يتنزّل لطائفة مخصوصة، في مكان مخصوص، ومدة معلومة؛ لغاية محدودة هي تعريف الناس بقدرة خالقهم، وإرجاعهم إليهم، فإذا استغفروا ربهم وأقلعوا عن ذنوبهم، أقلعت عنهم العقوبة، وزالت عنهم نُذر العذاب.

فهي إذاً منزلة وسطى بين التخويف والانتقام، أخبر الله تعالى عنها في مواضع من كتابه العزيز، قال سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]. ومن العذاب الأدنى ما يعتري الناس من مصائب في أنفسهم، وأموالهم، والأسقام والابتلاءات التي تصيبهم حتى يتوبوا[3]. قال الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم بشأن كفار مكة: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا

(١) تفسير السعدي، (ص: ٤٦١).

(٢) سنن أبي دواد، (٢/ ٣٥). قال الألباني: حديث حسن.

(٣) تفسير الطبري، (٢٠/ ١٩٠).

﴿ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[الدخان١٠-١٦]. قال السعدي رحمه الله: المراد بذلك ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان، واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: «اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف»؛ فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات، والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدة الجوع. ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله ﷺ وسألوه أن يدعو الله لهم أن يكشفه الله عنهم فدعا ربه فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ إخبار بأن الله سيصرفه عنكم وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب وإخبار بوقوعه فوقع وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة بدر وفي هذا القول نظر ظاهر[1].

فدلّت الآيات على أن إرسال الدخان والجوع والقحط الذي أصابهم كان عقوبة تأديب، وما حدث لهم بعد ذلك في بدر كان عقوبة عذاب وانتقام. ومثله ما حصل مع فرعون وقومه؛ حيث أرسل الله سبحانه عليهم الآيات

---

(١) تفسير السعدي، (ص: ٧٧٢). والحديث بتمامه: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع، فربما قال إذا قال: «سمع الله لمن حمده: ربنا لك الحمد، اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة ابن هشام، وعياش بن ربيعة، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها سنين كسني يوسف»، يجهر بذلك. (متفق عليه).

تخويفـًا وتأديبـًا، فلمـا اسـتكبروا وأصـرّوا علـى كفرهـم نـزل بهـم العقـاب الماحـق.

٤٩. حقارة الملحدين يظهر في أسلوب تخويفهم وتأديبهم.

مـن تأمّـل في آثـار قـدرة الله تعالـى وقهـره أبصـر بديـع حكمتـه فيمـن خالـف أمـره، وممـن تجـري عليهـم آثـار القهـر والقـدرة: الملحـدون الذيـن يشـككون النـاس في وجـود خالقهـم، وينسـبون بديـع خلقـه وجميـل صُنعـه إلـى بعـض خلقـه. ومن تأمّـل في نصـوص الوحـي ونظر في أحـوال الملحديـن ومآلهـم قديمـًا وحديثـًا أدرك حقارتهـم عنـد ربّهـم، وكيـف يعاقبهـم بمـا يتوافـق مـع دنـو طبعهـم، ورذالـة فكرهـم؛ فشـأنهم أقـلّ وأحقـر مـن أن يؤدِّبهـم أو يعاقبهـم بآياتـه الكونيـة العظيمـة التـي جعـل التخويـف بهـا مـن نصيـب المعظّميـن لربوبيتـه، المعترفيـن بقدرتـه وقوّتـه، وإن كانـوا كافريـن يصارعـون أمـواج البحـار، فضـلاً عـن أن يكونـوا مسـلمين حـادوا بمعاصيهـم عـن امتثـال الأدب مـع خالقهـم.

قـال الله تعالـى في معـرض الـرّد علـى أحـد الملحديـن الذيـن أنكـروا قدرتـه سـبحانه علـى البعـث: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، فلـم يُرجعـه إلـى التفكّـر في عظمـة الكـون مـن حولـه بـل أحالـه إلـى نفسـه ليتفكـر في خلقـه، ويعتـبر بانتظـام أعضائـه. ويقـترب مـن مسـلك التأديـب هـذا كلّ مـن أو تسـاءل علـى سـبيل التعجّـب أو لطلـب الشـاهد عـن آثـار القـدرة العليـة، والعظمـة

القدسية لربنا جلّ جلاله، وإن كان عبداً صالحاً مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، أو نبياً كريماً سأل ربه كيف يحيي الموتى، فأحال الكريم الأول لينظر في قدرة الله تعالى أولاً في حال نفسه وحماره وطعامه بعد مائة سنة، وطلب من الخليل الثاني أن يلطخ يده بدماء أربعة من الطير بعد أن يذبحها قبل أن يريه عظمته في إحيائها بعد موته، وهو نوع تأديب وعتاب لا يخفى.

وعلى هذا يكون منهج التعامل مع الملحد الأثيم؛ فلا حاجة لنا في مناظرته حول عظمة من أجرى الأفلاك في سمائها، والأسماك في مائها، وحفظ الطير في هوائها، بل نأمره بالنظر في حال نفسه، والتفكر في خلقه، من الجينوم إلى سائر الأعضاء الحسية المشاهدة، وذلك ما يُصلحه ويصلح له.. فقطرة دم واحدة تخرج من جسده كفيلة بتخويفه، وتأديبه، وإيقاظه من سكرته، لأنه يوقن بدقة نتائجها، وصحة أرقامها والنسب المنتظمة في تحليلها الذي تفوق نتائجه تحليل مستوى الأداء في جميع الوزارات وكبرى الشركات الناجحة على مستوى العالم، فإذا عوقب باضطراب نسبة السكر والأملاح في دمه، وارتفاع مستوى الضغط والكوليسترول وزيادة إفراز الغدد رغم محافظته على صحته، وانتظام رياضته وأكله الصحي الذي يختاره بعناية.. طالبناه بتفسير مادي لما يراه ويعاني منه، قبل أن يرتفع عن دركته الرذيلة الوضيعة ويشكك في عظمة خالقه.

ولو أنّ باحثاً منصفاً تفرغ لدراسة السجلات المرضية، ومستوى الصحة النفسية، وطبيعة العلاقات الاجتماعية لعشرة ملحدين معاصرين، وعمد إلى المقارنة بينها قبل إعلان إلحادهم وبعده لخرج بالنتيجة ذاتها التي تعدّ قاسماً مشتركاً بين عقوبات الملحدين قديماً وحديثاً؛ يُشغلهم الله تعالى بذواتهم فلا يجدون تفسيراً منطقياً لاعتلال صحتهم الجسدية، أو تفاقم أمراضهم النفسية والعقلية، أو اضطراب أزماتهم الاجتماعية.

والملحد منهم قبل أن يمد عنقه ويجول ببصره للبحث عن ثغرات في ملكوت الكون العظيم مطالب بإيجاد تفسير منطقي لنفور زوجته، وعقوق ولده، وبغض أهله وقرابته، وكثرة مشاكله في وظيفته ومع أصدقائه رغم دماثة خُلقه وبشاشته وكرمه وتفانيه في خدمة من حوله! وتلك والله الإهانة لو تأملناها وأبصرنا بعض حِكمها، قال الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٦-٨]، فاعجب من بديع الحكمة كيف جُعل التفكر في الخلق الناشئ من هذا الماء المهين داحضاً لأباطيل كل ملحد مَهين.

وليس أحد بعد الملحد أحق بهذا النوع من التأديب والعقوبة من المهين الآخر الذي يُكثر اللعن، والحلف والدعاء على نفسه وأهله وماله بجامع تهوين قدر الخالق سبحانه والاستخفاف بقدرته على إيقاع لعنته والطرد من رحمته بهذا الحلاف المهين، وكما طُرد الملعون من أن يصحب جماعة المسلمين وإن كانت ناقة، فكذلك الملعون لا طاعة له ولا تقريب

ولا تكريم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[القلم: ١٠]، والمؤمن الحقّ معظّم لربّه في أحواله وأقواله وأفعاله، وهو في غاية التعظيم والتذلل والانكسار لله جل جلاله.

٥٠. (الرّجز) آية تخويف يصحبه نوع عذاب.

الآيات التي يرسلها الله تعالى براهين واضحة أخلصت للتخويف والتحذير، ولا يُقصد بها الانتقام والعذاب الذي هو أبرز صفة للعقوبات، فإن صحب الآيات نوع عذاب في واقع أفراد بأعيانهم، فإنّها تُسمى (رجزاً). وإنزال الرّجز تخويف من وجه، وعقوبة من وجه؛ فهو تخويف مصحوب بتحذير، وصفاته وشدّته بحسب موجبه من الذنب الذي نزل بسببه، وأحوال العصاة الذين حقّ بهم، وسياق الآيات يُظهر أنّه آخر مرحلة قبل نزول العذاب إذا لم يقلع المجرمون ويحدثوا توبة واستغفاراً.

ومن أمثلة الرجز ما وقع بفرعون وقومه جراء تكذيبهم، ومع أنّه رُفع بعدما أظهر المجرمون ندمهم، واستجابوا لمطالب موسى عليه الصلاة والسلام إلا أنّ العذاب الأليم، والعقوبة الكبرى حلّت بعده سريعًا لمّا نكثوا عهدهم، قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف١٣٢-١٣٦]. فجعل سبب إرسال الرّجز عليهم: تخويفهم من العذاب الماحق الذي سيحلّ بهم، وهو ما ورد صريحـاً في قول الله جلّ شأنه: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، فجعل الانتقام منهم بسبب تكذيبهم بالآيات التي أرسلها عليها واحدة تلو الأخرى، ولم يجعل الآيات هي العقوبة ذاتها، بل الغرق. قال الطبري رحمه الله: لما رفع الله عنهم العذاب الذي أنزله بهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ ليستوفوا عذابَ أيامهم التي جعلَها الله لهم من الحياة أجلا إلى وقت هلاكهم ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ أي: ينقضون عهودَهم التي عاهدوا ربَّهم وموسى، ويقيمون على كفرهم وضلالهم. عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ قال: عدد مسمَّى لهم من أيامهم[1].

ومما يدخل في معنى الرّجز وصفاته وبعض عاقبته: ظهور الفساد الذي يحلّ بالناس في البر والبحر: فساد الهواء، والماء، والتلوث، وفساد المعاملات، وظهور العداوات، وتقطع الصلات والقرابات، وانتشار الأوبئة، وارتفاع الأسعار ونحوها، فقد أخبر سبحانه أن ما يصحب ذلك من عذاب واضطراب إنما هو عذاب مخفَّف، بسبب انحراف الناس، وما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة بطبعها، قال الله سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا

(١) تفسير الطبري، (١٣/ ٧٣).

كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[الروم: ٤١]، أي: ليعلموا أنه سبحانه المجازي لهم على الأعمال، حيث عجّل لهم نموذجا من جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ عن أعمالهم التي أثّرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم. فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة[1].

٥١. رؤية الآيات يستوجب التعظيم والندم والفزع إلى الصلاة والدعاء.

يُجري الله تعالى الآيات علامات لتعظيمه، وتخويف عباده، وتحذيرهم، ويُرسلها كذلك مؤشرات لوقوع العذاب، ومقدمات لاستحقاق العقوبة. والآيات إذا تنزّلت وجب معها التدبّر، والتضرّع، والتعظيم، والتوبة؛ فإذا أقلع أصحابها عن الذنوب التي أوجبت تغير حالهم: رُفعت، وإن استكبروا حقت بهم العقوبة والنكال.

وتغيّر الكون باعث على الخوف والرهبة والفزع إلى الله تعالى، وقد كان ذلك دأب المشركين الأولين الذين يجأرون إلى ربّهم حال الكرب والشّدة ثم ينسونه حال الرخاء والدَّعة، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وصدق الانتفاع بالآيات إنما يظهر بعد ارتفاعها؛ باستدامة الندم، ولزوم العدل، والافتقار للواحد القهّار، وبدونه يحق على أهلها التخويف مجدداً

(١) تفسير السعدي، (ص: ٦٤٣).

بآيات مرسلة يصحبها نكال ونوع عقوبة بأولئك الغافلين الذين لم يستقيموا بعد التخويف بآيات قبلها، والخوف والهلع الذي يصاحب هذا النوع من الآيات آكد من غيرها. وقد عتب الله تعالى على أقوام مسّهم الضرّ في البحر، وتنزّلت عليهم نُذُر التخويف؛ فلما استقامت أحوالهم وتابوا إلى ربهم ساعة الاضطرار رفعها الله عنهم، فلما استشعروا السلامة والنجاة: أعرضوا، وعادوا إلى سابق كفرهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ [الإسراء:٦٧-٦٩].

ومما يُظهر المقصد العظيم من إرسال الآيات: التأمّل في الكيفية التي تؤدى بها الصلاة التي شُرعت عند ظهورها بكيفية طويلة على حال من الذلّ، والخوفّ، والرهبة، حتى تنجلي الغُمّة. عن عائشة رضي الله عنها في قصة كسوف الشمس على عهد رسول الله ﷺ أنه قام ﷺ بعدما انجلت الشمس فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله، وكبروا، وصلوا، وتصدقوا». ثم قال: «يا أُمّة محمد، والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده، أو تزني أمته، يا أمّة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم

لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا»[١]. وفي هذا الحديث تأكيد للصلة الوثيقة بين ظهور الذنوب والفواحش، من الزنا، واللواط ونحوهما، واضطراب حركة الكون، وإرسال الآيات للتخويف على إثرها.

٥٢. دور العلماء والرؤساء يتعاظم في اللحظات الحرجة عند نزول الآيات.

رؤية الآيات يوجب التدبّر، والتضرّع، والتعظيم، والناس جميعًا ـ مسلمهم وكافرهم ـ أسرع للتوبة في تلك اللحظات الحرجة، وأرغب في الإقلاع عن الذنوب، وأفزع إلى الطاعة، وترك المظالم. قال قتادة رحمه الله: إن الله تعالى يخوّف الناس بما شاء من آياته لعلهم يرجعون[٢].

ومسؤولية العلماء والرؤساء تعظم حال تبدّل الآيات وترقّب العقوبات، فهم القدوات الذين يسوقون الناس إلى ربّهم، ويعظّمون مقامه جلّ جلاله في قلوبهم، ويدفعونهم للإقبال عليه، والتضرّع بين يديه، والفزع للصلاة والدعاء حتى تنجلي الغمّة. ودور العلماء لا يتحقق بمجاراة التفسير المادي السائد، بل في طرق الجانب الآخر الذي يغفل عنه المحللون، ويتغافل عنه الساسة والاقتصاديون والمخططون، ألا وهو: ربط الناس بخالقهم، وبيان عظمته وقدرته وقهره، والتأكيد على أنّ ما يحدث للناس من تغيّر أحوالهم، واضطراب أوضاعهم واختلال أمنهم واستقرارهم إنّما هو نتيجة

---

(١) متفق عليه.

(٢) تفسير البغوي، (٣/ ١٤١).

لتغير نفوسهم، مع حثهم على الاعتبار بأحوال الدول المارقة من حولهم، واستحضار سنّة الأمم من قبلهم، وترغيبهم في ترك المظالم، والإقبال بالتوبة والاستغفار حتى يرفع الله تعالى ما نزل بهم.

وإذا جاز لعلماء الأرصاد، والمتخصصين في الأحوال الجوية ونحوهم أن يخاطبوا الجمهور ويبيّنوا للمجتمع الآثار الناجمة عن تحرّك صفائح القشرة الأرضية، واستشراف مواعيد الكسوف ونحوها باستخدام أجهزتم المادية، ومناهجهم التجريبية، فإنّ علماء الشريعة أولى من غيرهم بتصدر المشهد في زمن تغيّر الآيات، وظهور مقدمات العقوبات، وإذا وقعت الآيات الفجائية أنيطت بهم أعظم مسؤولية؛ حيث يصبحون مقصدَ الناس ومفزعهم؛ يبحثون عنهم ليرشدوهم إلى طرق النجاة، وأساليب التعامل، ويبيّنوا لهم الأسباب الحقيقية لذلك التغيّر غير المعهود!

وقد أدرك أئمة السلف رحمهم الله تعالى هذا المعنى من التخويف كلما تغيّرت من حولهم حركة الرياح، واضطربت قشرة الأرض، وتلبّدت السماء بالغيوم على نحو مريب. عن نافع، عن صفية رضي الله عنها قالت: زُلزلت المدينة على عهد عمر رضي الله عنه، فقال: أيها الناس ما أسرع ما أحدثتم، لئن عادت لا أساكنكم فيها[1]. ولما رجفت الأرض في الكوفة على عهد ابن مسعود، قال: يأيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه[2].

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٤/ ٢٩٥)

(٢) تفسير الطبري، (١٧/ ٤٧٨).

٥٣. فوارق الآيات والعقوبات تظهر في ذاتها، وصفاتها، وآثارها.

من أساليب التأديب بالآيات: المراوحة بين البأساء، والسراء، والتهديد بالعقوبات الخفيفة المحتَملة، قبل إيقاع العذاب الشديد الماحق في ختام الأمر، قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنعام:٤٢-٤٥] فجعل قطع دابرهم محصلة نهائية لسلسلة من التهديدات والعقوبات المتدرجة التي لم يرتدعوا بها.

وفي الآيات إخبار بأهم ثلاثة أسباب لعدم الانتفاع بآيات التخويف والتأديب: قسوة القلوب، وتزيين الشيطان، والغفلة والنسيان بسبب الترف الحاصل جراء وفرة الأموال، والأولاد، والعدّة والعتاد.

وسنّة الله تعالى القائمة، وطريقته الدائمة في حق الأفراد والجماعات والدول أن يبتلي من استطال منهم في الضلال بآيات التخويف والتأديب لعلهم يرجعون، فإذا لم يُحدثوا توبة ولم تنفعهم الآيات ابتلاهم بالعقوبة الماحقة الأشدّ. قال ابن الجوزي رحمه الله: كنا نتحدث عندنا بالبادية أنّ مجنون بنى عامر لما قال: قضاها لغيري وابتلاني بحبها... فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا، ذهب بصره[1].

---

(١) ذم الهوى، (ج١/ ص٢١٢).

والفارق كبير بين الآيات والعقوبات؛ فالآيات ـ في الجملة ـ تُرسل للتخويف، بينما تُرسل العقوبات للانتقام. والآيات لا يراد بها الإفناء بل التخويف والتحذير، بخلاف العقوبات. والعذاب المصاحب للآيات (الرجز) أخفّ بكثير من العذاب المصاحب للعقوبات.. في ذاته، وصفاته، وآثاره. والآيات تقدمة بين يدي العقوبات، فكأنها رسولها، أو المنادي بين يديها، وهي إذا نزلت رُفعت، بخلاف العقوبات فإنها إذا نزلت وقعت. ورفع الآيات له أسباب عدّة، منها: التوبة والاستغفار، كما حدث مع قوم يونس عليه الصلاة والسلام وغيرهم. قال الرازي في تفسيره: لا آية إلا وتتضمن التخويف بها عند التكذيب، إما من العذاب المعجَّل، أو من عذاب الآخرة[1].

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٠/ ٣٥٩)

خامساً:

قواعد لمعرفة العقوبات التي تحقّ بالمجرمين جراء مخالفتهم أمر ربّهم.

٥٤. العقوبات الإلهية قوارع يرسلها الله تعالى لإظهار قدرته وقهره.

العقوبة في اللغة ترجع إلى أصل واحد هو: مجيء الشيء عقب الشيء[١]. وهي الجزاء على الذنب [٢]، فكأنها استحقاق يعقب فعل الذنب ولا يتخلّف عنه. ويحمل معنى العقوبة إيقاع الألم المقصود شرعًا في المعاقب، بقدر ما اقترف من الظلم، وتجاوز من الحقوق، وانتهك من الحدود.

ويمكن تعريف العقوبات إجمالاً بأنها: قوارع شرعية وكونية، يرسلها الله تعالى مجازاة لمن خالف أمره من البشر أفراداً وجماعات، وصيانة لشريعته، وإظهاراً لحكمته، وإنفاذاً لقدرته.

والعقوبة التي تحلّ بفرد أو بشعب أو دولة عتت عن أمر ربها مجرد فصل أخير في سيرتها الذاتية التي تراكمت بالذنوب، وكتبت بسواد المخالفة والاستكبار ولم تنتفع بنفحات الإمهال، ولا بتتابع الآلاء والمِنَن. فإذا صدر في حقها منشور العزّة بالإهلاك تسابق عليها جنود السماوات والأرض، فاضطربت الأرض من تحت أقدام أهلها، وتغيرت عليهم مظاهر الكون من فوقهم، واختلت شؤون حياتهم، وفسدت أنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية، وعمّتهم الكوارث، وظهرت فيهم الأزمات، والأوبئة، والفتن من كل جانب.

---

(١) مجمل اللغة لابن فارس، (ص٦٢٠).

(٢) لسان العرب لابن منظور، (١/ ٦١٩).

٥٥. العقوبات بحسب مصدرها: إمّا قدرية، وإمّا شرعية.

العقوبات التي ينزلها الله جلّ جلاله على عباده في الدنيا إمّا قدرية كونية، وإمّا شرعية. والعقوبات القدرية إمّا جماعية تحلّ بالدول والأمم، وإمّا فردية تشمل الأمراض، والأسقام والآلام، وسائر الابتلاءات التي تعتري الفرد.. مسلمًا كان أم كافراً، إلا أنها في حق المؤمن كفارة ورحمة، وفي حق الكافر عذابًا ونقمة. عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا همّ، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفّر الله بها من خطاياه»(١).

والعقوبات الشرعية ـ كما سيأتي ـ على نوعين: حدود مقدّرة، كالقتل، وقطع اليد، والرجم، والجلد، أو تعزيرات غير مقدّرة يرجع النظر فيها إلى القاضي بحسب تقديرات عدّة، منها: تقدير الجناية نفسها، وحال الجاني الذي اقترفها.

أولاً: العقوبات الكونية

٥٦. العقوبات تُعرف بتأثيرها المكاني والزمني

تنقسم العقوبات الكونية بالنظر في مداها الزمني إلى قسمين: عقوبات آنية تتنزّل في الحال، وعقوبات تراكمية، بسبب انحرافات استغرقت فترات طويلة من الإمهال.

---

(١) متفق عليه.

ومن رحمة الله تعالى أن العقوبات الآنية التي يعجّل بها العقوبة على الأفراد والمجتمعات أقل بكثير من العقوبات التراكمية، والسبب يعود إلى أنّ الذنوب التي تُعجّل بسببها العقوبة في الدنيا محدودة، يمكن حصرها وتجنّبها، وهي مع قلّة عددها عظيمة الجُرم والعاقبة، منها: البغي، وقطيعة الرحم. عن أبي بكرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من ذنب أجدر أن يعجّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يُدّخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[1].

كما تنقسم العقوبات القدرية الكونية بحسب تأثيرها المكاني إلى:

١- كوارث بيئية شاملة كالزلازل، والحرائق، والبراكين، والفيضانات العارمة التي تضرب رقعة واسعة من المكان، ويعاني منها عدد كبير من الناس، ويحدث بسببها توقف الحياة وتعطل المصالح الكبرى للناس، من ماء وغذاء وكهرباء ونحوها.

٢- صراعات وحروب بشرية، تشمل رقعة محدودة من المكان، ويختلّ بسببها الأمن، ويحدث القتل والإبادة، وتتوقف معها مصالح الناس، وتنتشر بسببها الأوبئة والأمراض الفتاكة.

٣- ابتلاءات وأمراض وضغوطات نفسية ذات مدى مكاني محدود، تتعلق بالشخص المبتلى نفسه، تضطرب بسببها صحته، ويختل

(١) سنن بن ماجه، (٢/ ١٤٠٨). قال الألباني: حديث صحيح.

نظام حياته، وربما اتسعت لتشمل دائرة الأسرة التي ينتمي إليها والمحيط الاجتماعي الذي يتنقل فيه.

٥٧. العقوبات بالنظر في شدّتها تتراوح بين: ذاتية ومركّبة.

تتفاوت العقوبات من حيث شدّتها بين: عقوبات ذاتية يكون الهلاك بها قاصراً على نوع بعينه من العذاب، وعقوبات يكون الهلاك فيها مركّباً من نوعين فأكثر من العذاب، كما أخبر الله تعالى عن نهاية ثمود وأنها حدثت جراء عذاب مركّب من الصاعقة التي أحرقتهم، والصيحة التي أرجفت قلوبهم وخلعتها من أماكنها، قال الله جلّ شأنه: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٦- ٦٨].

ومما يُظهر شدّة العقوبات إذا حقّت بالمجرمين: تهدّد الله تعالى المستحقّين لها بالقهر وإنفاذ الأمر على أي حال يكونون، وفي أيّ مكان يوجدون: في البرّ أو البحر، بياتاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم يلعبون أو يكدحون أو قائلون، قال الله جلّ جلاله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ

﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

٥٨. دلالات (العقوبة) في القرآن تتناول المجازاة على الذنوب.

ورد لفظ (العقاب) في ثلاث آيات من القرآن الكريم كلها في سياق الحديث عن الانتصار للمرسلين الذين كذبهم أقوامهم، قال الله جلّ جلاله: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥]، وقال سبحانه: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾[ص: ١٤]

كما تكرر لفظ (العاقبة) ثلاثين مرة في الكتاب العزيز، سيقت لبيان استحقاق المعذبين للعقوبة، والاعتبار بأخبارهم أو بآثارهم الباقية، وتثبيت المؤمنين، وحثّهم على الصبر حتى ينتصر لهم ربّهم من عدوّهم، قال الله جلّ شأنه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣٧-١٤١].

٥٩. العقوبات تتنزّل للانتقام، ويقترن بها غضب الرّب سبحانه.

إرسال الآيات للانتقام مرحلة فاصلة في مسلسل العقوبات العامة، وفيها يكون الفناء والمحق، وتنزّل العذاب الأليم الذي لا طاقة للبشر به، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]. وأظهر حالات الانتقام ما يكون في ثلاثة مواطن:

الأول: استجابة دعوات الأنبياء والمرسلين ومن يقوم مقامهم حال ضعفهم وعجزهم، قال الله تعالى مخبراً عن نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:٩-١٤]. وقال سبحانه في شأن موسى وأخيه عليهما السلام: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٤-٢٦]، وقال تعالى مخبراً عن تخطيط قوم صالح في الخفاء لقتله وأهله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ

يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

[النمل:٤٩-٥٢]

الثاني: اشتداد غضب الرب سبحانه نتيجة المجاهرة بالذنوب، والظلم والإستكبار والصدّ عن سبيله، قال تعالى في شأن فرعون وقومه: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزُّخرُف:٥٤-٥٦]، فجعل سرعة هلاكهم نتيجة غضبه عليهم وسخطه بهم. قال الطبري رحمه الله: استخفّ فرعون خلقا من قومه من القبط، بقوله الذي أخبر عنه الله تبارك وتعالى، فقبلوا ذلك منه فأطاعوه، وكذّبوا موسى، وإنما أطاعوا عدوّ الله فاستجابوا لِما دعاهم إليه من تصديقه وتكذيب موسى، خذلانا من ربّهم جراء خروجهم عن طاعته، وطبعه على قلوبهم. وقوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ أي: أغضبونا وأسخطونا فعاجلناهم بالعذاب، وأغرقناهم في البحر جميعا [١].

---

(١) تفسير الطبري، (٢١/ ٦٢١).

الثالث: الاستجابة لدعوات المظلومين التي ربما تراكمت فترات طويلة من الإمهال والإنظار للظالمين. عن أبي موسى ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢][1]. وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الأمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم، يرفعها فوق الغمام، وتُفتّح لها أبواب السماء، ويقول الرّبّ عزّ وجلّ: «وعزتي لأنصرنكِ، ولو بعد حين»[2].

٦٠. أكثر العقوبات محصّلة لتراكمات ذنوب أملى الله تعالى بها للظالمين.

توقيت نزول العقوبات على الأفراد والجماعات ما هو إلا حلقة أخيرة من حلقات مسلسل طويل مليء بالإنعام والإمهال، والتجاوز والصفح. قال جلّ شأنه: ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾[النحل: ٦١]. والناس يُذهلهم شدّة العذاب، وتفجؤهم سرعة المحقّ، ويغفلون في المقابل عن مرحلة طويلة من الإمهال مع استحقاق العقوبة، وصفحات طويلة من الإنعام رغم الاستكبار والمجاهرة ولزوم الذنب، قال الله سبحانه: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ ﴾[الكهف:٥٨]، قال صاحب الأضواء: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه لو عاجل الخلق

---

(١) صحيح البخاري، (٦/ ٧٤).

(٢) جامع الترمذي، (٤/ ٦٧٢). قال الألباني: حديث صحيح.

بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض، ولكنّه حليمٌ لا يعجّل بالعقوبة؛ لأنّ العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السماوات والأرض لا يفوته شيء أراده[1].

والمؤمن يراوح بين الخوف والرجاء.. يغلّب جانب الرّجاء حال المداومة على الطاعة، وعند فراق الدنيا على التوحيد والعمل الصالح، ويغلّب الخوف عند اقتراف المعصية، وحال الإقامة على مخالفة أمر الله تعالى. والله ﷻ يخوّف عباده نفسه، ويرغّبهم في رحمته، وهو مع حلمه ولطفه وإمهاله: قويّ، قاهر، جبّار لا يُعجزه شيء. عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عز وجل يُملي للظالم فإذا أخذه لم يُفلته»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢] [2].

٦١. تأخّر نزول العقوبة بمن يستحقها: استدراج ومتاع إلى حين.

إذا تحقق في قوم نزول العقوبة بسبب انحرافهم ثم تأخرت عنهم فإن ذلك يسمى (استدراجًا)، قال الله تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[القلم: ٤٥]، وخطورة هذا الاستدراج يظهر في عاقبته، حيث يمدّ الله تعالى المجرمين بأسباب القوة والرغد من حيث لا يشعرون ثم يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا

(١) أضواء البيان، (٢/ ٣٨٩).

(٢) . متفق عليه

ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ولأجل ذلك الاستدراج أخبر الله تعالى نبيه الكريم بتحذير المجرمين من عاقبة إمهال الله تعالى لهم، بقوله جلّ شأنه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأنبياء: ١٠٩-١١١]. والمعنى: علمُ العذاب عند الله وهو بيده ليس لي من الأمر شيء، ولعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شرّ لكم وإن تتمتعوا في الدنيا إلى حين ثم يكون أعظم لعقوبتكم[١]. وقال تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ﴾ [الأنبياء: ٤٤]. فهو سبحانه يُمهل الكفار ويملي لهم في النعمة وبما رزقهم من نعيم الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء لا يزيدهم إلا كفراً وضلالاً وطغياناً ولجاجاً في الكفر[٢]. كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقال جلّ جلاله: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٨].

(١) تفسير السعدي، (١/ ٥٣٢).

(٢) بتصرف من أضواء البيان، (٤/ ١٥٦).

٦٢. حديث القرآن الكريم عن العقوبات يتناول التحذير من (مقدماتها).

أكثر نصوص الكتاب والسنة تتناول الحديث عن مقدّمات العقوبات، ولا تقف طويلاً مع وصف العقوبات ذاتها، ببيان شدتها وأليم العذاب الذي حلّ بأهلها إلا بالقدر الذي يدفع لتفاديه، واجتناب الذنوب الموصلة إليه. وهذا المنهج القرآني الكريم يتضح عند التأمّل في مساحتين من المقدّمات:

١. مقدمات (استحقاق) العقوبة، والآثار الكارثية لظهور الانحراف، وكثرة الخبث، والمجاهرة بالذنوب التي توعّد الله عزّ وجلّ عليها بالعذاب. وهي مساحة لها خصوصيتها، وموجهة بالدرجة الأولى إلى العلماء والرؤساء، وكل ذي نظر ثاقب وعقل صائب في المجتمع.

٢. ومساحة أخرى أوسع تخاطب الجميع، وتتناول التحذير من مقدمات (الإمحاق) بوصف ما يسبق العقوبة بقليل من استعلاء واستكبار، وما يدور من حوار بين المعذبين وبين المصلحين الذين أنكروا عليهم انحرافهم، وكذا وصف النُّذُر الكونية والاجتماعية المُرسلة بين يدي العقوبة على نحو غير مسبوق.

٦٣. الحديث عن المعذبين حديث كريم يخلو من السخرية والتشفّي.

إذا كان أكثر حديث القرآن الكريم موجهًا للتحذير من مقدمات العقوبات فإنّ حديثه عن المعذبين بعد نزع صفحتهم السوداء من تأريخ البشرية حديث كريم لا يقف عند عبارات التشفّي والسخرية، بل يتجاوز ذلك إلى

ما هو أهم وأولى. وهو حديث له مساران ظاهران، الأول: يستكمل ما جرى مع المعذبين من لحظة نزول العقوبة إلى أن يقفوا بين يدي الله تعالى لفصل القضاء يوم القيامة. والثاني: ينتقل إلى من جاء بعدهم؛ ليأخذوا العبرة بهم، ولا يصيبهم ما أصابهم.

وبالتأمّل في النصوص التي تناولت المسار الأول يمكننا الخروج بخمسة أسباب رئيسة يعرضها القرآن الكريم في سياق استكمال الحديث عمّا جرى للمعذبين بعد نزول العقوبة بهم، وهي:

أولاً: إظهار عظمة الله تعالى وقهره لعباده؛ بوصف آثار الدمار في ساحة العذاب بعد انقشاع غباره، كما في قوله جلّ جلاله: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦ـ ٨]، وقوله سبحانه: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥]، وقوله جلّ شأنه: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥١ـ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص ٥٨].

ثانيــًا: تأكيـد عـدل الله تعالـى مـع أولئـك المعذبيـن؛ ببيـان اسـتحقاقهم للعقوبـة، وأنّهـم الظالمـون لأنفسـهم، كمـا في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هـود:١٠١]. وقولـه جـلّ شـأنه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [فُصِّلَت: ١٧]، وقولـه تعالـى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعـراف: ٩٢].

ثالثــًا: تأكيـد رجـوع الخلائـق إلـى ربّهـا، واسـتكمال قضاياهـا بيـن يديـه يـوم القيامـة. كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠]، وقولـه سـبحانه: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشـية: ٢٦].

رابعــًا: إظهـار حسـرة المعذبيـن علـى أنفسـهم، وتأسـفهم لمـا وقـع بهـم، والتوجيه بعـدم الأسـى عليهـم مـا دامـت قـد بلغتهـم الحجـة، وظهـرت أمامهـم المحجـة، كمـا في قولـه جـلّ جلالـه: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، عـن قتـادة قـال: أي: يـا حسـرة العبـاد علـى أنفسـها

على ما ضَيَّعت من أمر الله، وفرّطت في جنب الله[1]. وقوله سبحانه عن صالح وشعيب عليهما الصلاة والسلام: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[الأعراف:٩٣]. ومن ذلك قول أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يُرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول: «هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله»، قال: فقال عمر رضي الله عنه: فوالذي بعثه بالحق ما أخطئوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ. قال: فجُعلوا في بئرٍ بعضهم على بعض، فانطلق رسول الله ﷺ حتى انتهى إليهم، فقال: «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان: هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا؟ فإنّي قد وجدت ما وعدني الله حقا»، قال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردّوا عليّ شيئًا»[2].

خامسًا: إصدار الحكم النهائي الذي تُغلق به قضيتهم، تارة بالدعاء عليهم، وتارة بتأكيد استمرار عذابهم في البرزخ، كما في قوله سبحانه عن قوم نوح: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [هود: ١٥٥]وقوله عز وجلّ عن مدين: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ

---

(١) تفسير الطبري، (٢٠/ ٥١٢).

(٢) متفق عليه. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب، قليب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: «وأتبع أصحاب القليب لعنة». صحيح البخاري، (١/ ١١٠).

جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود: ٩٤-٩٥]. وقوله سبحانه عن فرعون وقومه: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦].

٦٤. المقصد الأكبر من ذكر المعذّبين: أخذ العبرة بما حلّ بهم.

حديث القرآن الكريم عن المعذبين حديث عملي، موجّه للتذكير بالمآل، أو التحذير من الحال، وكثيراً ما يجتمع التحذير والتذكير في سياق واحد. والتذكير بمآل المعذبين موجّه للاعتبار، ولفت الأنظار بمساكن المعذبين التي يسكنها المخاطبون، أو سمعوا عنهم ممن مضى من أسلافهم، أو رأوا آثارهم في أسفارهم. قال الله جلّ جلاله: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨] وقال جل شأنه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠] وقال سبحانه: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وقال عز وجل في شأن أصحاب السبت: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة]، والمعنى: أي ما حولها من القرى، قال ابن عباس: يعني جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرةً لما حولها من القرى، قال سعيد بن جبير: أي: من بحضرتها من الناس يومئذ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧][1]. قال ابن كثير رحمه الله: أي فجعل

---

(١) تفسير ابن كثير، (١/ ٤٤٠)

الله هذه القرية، والمرادُ أهلُها بسبب اعتدائهم في سبتهم (نَكَالاً) أي عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة لما حولها من القرى[1].

وقال جلّ جلاله محذراً من حال المعذّبين ومذكراً بسوء مآلهم: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٥]. قال الشنقيطي رحمه الله: المعنى: أفلا يرى كفار مكة ومن سار سيرهم في تكذيبك يا نبي الله ﴿ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أي: بإهلاك الذين كذبوا الرسل، كما أهلكنا قوم صالح وقوم لوط، وهم يمرّون بديارهم، وكما أهلكنا قوم هود، وجعلنا سبأ أحاديث، ومزّقناهم كل ممزق، كل ذلك بسبب تكذيب الرسل. فاحذروا من تكذيب نبينا محمد ﷺ لئلا ننزل بكم مثل ما أنزلنا بهم[2].

٦٥. الأمم التي لا تعتبر بنهايات الظالمين أشبه بالأنعام.

كثيراً ما يأتي سياق التحذير من مآل المعذبين بالحديث عن تعطيل الحواس وعدم الاستفادة منها؛ فكأنّ الأمم الغافلة الظالمة التي يصيبها العذاب الذي حلّ بأمّة قبلها، أو معاصرة لها، أشبه بالأنعام في تعطيل عقولها مع فساد حالها، مع اجتماع موجبا اليقظة عليها من: الاعتبار بسنن الأولين، أو رؤية المقدمات الحقيقية للعذاب، فلا هي أقلعت عن ظلمها، ولا هي اعتبرت بحال المعذّبين قبلها، قال الله جلّ جلاله: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ

---

(١) تفسير ابن كثير، (١/١٠٨).

(٢) أضواء البيان، (٤/١٥٨).

إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴾ [الكهف: ٥٥]، والمعنى: ما منع الناس من الإيمان بعدما وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله إلا الظلم والعدوان، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله، وعادته في الأولين من أنّهم إذا لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعاينة، أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مردّ له[1].

والاعتبار بحال الأمم الظالمة يشمل البائدة منها، والقائمة. وقد أخبرنا الله تعالى كثيراً عن حال الأمم الظالمة قبل تنزّل العذاب، وحالها في أثنائه، وبعد وقوعه؛ لنعتبر بذلك كله. وسنته سبحانه في المجرمين دائمة وقائمة على الأمم الظالمة في كل عصر. قال الله جلّ شأنه: ﴿**وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ**﴾ [الرعد: ٦]. أي: قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية، وجعلناهم عبرة وعظة لمن بعدهم، فاحذروا أن تكونوا مثلهم.. ولفظ (المَثُلات) لم يرد في القرآن الكريم سوى مرة واحدة، في هذه الآية، وتعني: أخذ العِبر والعظات بما كانت عليه عاقبة الظالمين المعذّبين، حال سماع أخبارهم، أو رؤية آثارهم.

---

(١) تفسير السعدي، (ص: ٤٨٠).

٦٦. الاستقامة على أمر الله تعالى أعظم الفوارق بين العقوبة والابتلاء.

من أعظم الفقه عند ظهور الآيات وحصول الاضطراب في الكون والأنفس والمجتمعات: التفريق بين ما يُنزله الله سبحانه على قوم عقوبةً وانتقامًا وما ينزله على آخرين تمحيصًا وابتلاء. والفارق كبير بين العذاب الذي يصحبه ذلّ وهوان، والتأديب الذي يصحبه تخويف وتضييق. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد:٣٢]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]، وقال سبحانه في شأن المؤمنين يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ولأن الفوارق بين الابتلاء والانتقام قد لا تكون واضحة حال نزولهما إلا أنّ العبرة في التفريق بينهما يظهر باستحضار مقدماتهما وعاقبتها؛ فالابتلاء إنما يحدث للمؤمنين المستقيمين في الجملة على أمر ربّهم، وإن تنزّل عليهم البلاء لمخالفة بعضهم، أو لحكمة يريدها الله تعالى منهم، في حين يقع الانتقام على المجرمين الذين لا يرجون لله وقاراً، ولا يحفظون له عهداً، ولا يستقيمون له على أمر. والابتلاء يحدث معه تمحيص واستبقاء في عاقبته، في حين تتسم العقوبة في الجملة بالتدمير والإفناء، والعبرة في ذلك كله عائد لحال الناس

زمانــًا ومكانــًا وأعمــالاً. والابتـلاء إذا أطلـق فإنّمـا يُـراد منـه الاختبـار الـذي يعقبه تقديـم أو تأخير، وحرمـان أو تكريـم، قـال الله سـبحانه: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقـرة: ٢٤٩]، وقـال جـلّ شـأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائـدة: ٩٤].

ثانياً: العقوبات الشرعية

٦٧. العقوبات الشرعية كلها عدل، ورحمة، وحكمة.

العقوبـات التـي ينزلهـا الله تعالـى بعبـاده سـواء أكانـت قدريـة كونيـة أم شـرعية عـدل كلهـا، ورحمـة كلهـا، وحكمـة كلهـا. وأكمـل النـاس تسـليمـًا وإقـراراً بعـدل الله تعالـى ورحمتـه وحكمتـه فيمـا يقضـي علـى عبـاده: أتمّهـم علمـًا، وأكملهـم إيمانــًا، ثـم يتفـاوت النـاس بعـد ذلـك بحسـب صحـة إيمانهـم، وسـعة علمهـم.

والعقوبـات الشـرعية - كمـا يقـول شـيخ الإسـلام - إنمـا شُـرعت رحمـة مـن الله تعالـى بالخلـق، وإرادة الإحسـان إليهـم[١]. ومـن حِكمهـا وغاياتهـا: تحقيـق مصالـح العبـاد، ودرء المفاسـد عنهـم، وعـن مجتمعاتهـم، وصيانـة لمقاصـد الشـريعة الكـبرى في حفـظ الديـن، والنفـس، والعقـل، والنسـل، والمـال.

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، (٥/ ٥٢١).

ولأنها صادرة عن رحمة الله بخلقه، ونفعهم، وإرادة الإحسان إليهم، فقد تجرّد عنها معنى (الانتقام)، وجاء النهي عن التشفّي بمن أقيمت عليه. عبد الله بن بريدة عن أبيه: أن امرأة يعني من غامد أتت النبي ﷺ فقالت إني قد فجرت فقال: «ارجعي» فرجعت فلما كان الغد أتته فقالت لعلك أن تردني كما رددت ماعز بن مالك فوالله إني لحبلى فقال لها: «ارجعي» فرجعت فلما كان الغد أتته فقال لها «ارجعي حتى تلدي» فرجعت فلما ولدت أتته بالصبي فقالت: هذا قد ولدته فقال لها: «ارجعي فأرضعيه حتى تفطميه» فجاءت به وقد فطمته وفي يده شيء يأكلهُ فأمر بالصبي فدفُع إلى رجل من المسلمين وأمر بها فحُفر لها، وأمر بها فرُجمت وكان خالد فيمن يرجمها، فرجمها بحجر فوقعت قطرة من دمها على وجنته فسّبها فقال له النبي ﷺ: «مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له» وأمر بها فصلّى عليها ودُفنت[1]. وفي رواية أخرى صحيحة عند أبي داود: «والذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو قُسّمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها».

وعلى الرغم من أنّ العقوبات الشرعية عقوبات ردعية، وضعت للزجر والنكال، إلا أنّ لها مقصداً أكبر، ألا وهو: أن تكون كلمة الله تعالى هي العليا، وأن يُعظّم أمره ونهيه، ويُصان شرعه، بالإضافة لثلاث مصالح أخرى تعود على الفرد والمجتمع جراء تطبيق العقوبات الشرعية: التطهير من

(١) سنن ابي داود، (٤/ ١٥٢). قال الشيخ الألباني: صحيح.

الذنـوب، والتزكيـة للنفـوس والزجـر للفاعـل وغيـره مـن تكـرار موجـب العقوبـة في المسـتقبل.

ومـن زعـم أنّ في العقوبـات الشـرعية ظلمـًا، وأنها لا تناسـب هـذا العصـر فهـو إمـا كافـر حاقـد، أو مؤمـن مقلّـد جاهـل بالشـرع، ولا يُنعـم عينـًا بالـرّد عليـه ورفعـه فـوق منزلتـه حتـى يُقـررَّ بالحقائـق الثـلاث: أنّ الـذي أنـزل هـذه العقوبـات وأمـر بهـا هـو الله جـلّ جلالـه، وأنّ كل مـا يقـرره الله تعالـى ويأمـر بـه: عـدل، ورحمـة، ويسـير وفـق حكمـة بالغـة، وأنّ الـذي تولّـى تطبيـق هـذه العقوبـات وتنفيذهـا: رسـولُ الله ﷺ وخلفـاؤه مـن بعـده، وكلهـم أعلـم بـالله تعالـى وأعلـم بمـراده ممـن جـاء بعدهـم. فـإن أصرّ علـى قولـه فهـو زنديـق خبيـث الطويـة، ولا مصلحة في جداله.

٦٨. الشريعة الإسلامية وضعت لحفظ مصالح الناس.

شـريعة الله تعالـى متوافقـة مـع فِطـر النـاس وإراداتهـم، ولا مشـقة فيهـا ولا عنت بـل وضعـت لحفـظ مصالحهـم، وهـي تسـير مـع قـدرات الإنسـان وتحقـق لذاّتـه الكريمـة، وتدفـع عنـه المضـار، وتجلـب لـه المنافـع في العاجـل والآجـل، قـال ابـن القيـم رحمـه الله: قـد شـهدت الفِطَـر والعقـول بـأن للعالَـم ربّـًا قـادرًا حليمًـا عليمًـا رحيمًـا كامـلاً في ذاتـه وصفاتـه لا يكـون إلا مريـدًا للخيـر لعبـاده مُجرِيًـا لهـم علـى الشـريعة والسِّـنّة الفاضلـة العائـدة باسـتصلاحهم، الموافقـة لمـا ركّـب في عقولهـم مـن استحسـان الحسـن واسـتقباح القبيـح ومـا جبـل طِباعهـم عليـه مـن إيثـار النافـع

لهم، المُصلِح لشأنهم، وترك الضارَ المُفسِد لهم، وشهدت هذه الشريعة له بأنه أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه المحيط بكل شيء علمًا... فحسب العقول الكاملة أن تستدلّ بما عرفت من حكمته على ما غاب عنها، وتعلم أن له حكمة في كل ما خلقه وأمر به وشرعه. [1]

ومن أسماء الله الحسنى التي ورد فيها الاقتران: (العليم الحكيم)، وسرّ التقديم بينهما يظهر بمعرفة مبنى الأحكام وأنها دائرة على إحاطة العلم أولاً ثم الحكمة في تنزيل العلم على الواقع، بما يحقق الانسجام والتوافق بين الأحكام الشرعية والطبائع البشرية، وذلك ما يميز الشريعة الإسلامية عن الدساتير، والشرائع الوضعية[2].

وشريعة الله تعالى التي أنزلها على رسله واسعة رحبة، وهي رحمة كلها وعدل كلها، لأنها جاءت وفق علم الله تعالى وحكمته، وهي تفي بكل حاجات العباد، وفيها سعة وفسحة في الدين، لا تكلّف العباد ما ليس في وسعهم، ولا تحرّم عليهم ما فيه منفعتهم، ولا تحول بينهم وبين مصالحهم.

٦٩. تطبيق العقوبات الشرعية تطهير للأفراد.

التطهير هو الغاية الكبرى لإيقاع هذا النوع من العقوبات: تطهير من ارتكب المحظور بإيقاع العقوبة عليه في الدنيا، وعدم مؤاخذته عليها في

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٣١٨.

(٢) ناصر الجليل، ولله الأسماء الحسنى، ١/ ٢٤٦.

الآخرة، وتطهير المجتمع المسلم بتنقيته من الخبَث، وحسم مادة الشر فيه، والحفاظ على مصالحه من الضياع. والعلاج بالدواء المُرّ الشافي، أيسر بكثير من آثار المرض الباقي.

وقد فهم الصحابة الكرام المقصد الرفيع من إقامة الحدود، وظهر ذلك على ألسنتهم رضي الله عنهم. فعن بريدة بن الحصيب ﷺ قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال: «ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة، قال له رسول الله: «فيم أطهرك؟ «فقال: من الزنى، فسأل رسول الله ﷺ: «أبه جنون؟ «فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: «أشرب خمرا؟ «فقام رجل فاستنكهه، فلم يجد منه ريح خمر، قال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أزنيت؟ «فقال: نعم، فأمر به فرجم، فكان الناس فيه فرقتين، قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، أنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلم ثم جلس، فقال: «استغفروا لماعز بن مالك»، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال، فقال رسول الله ﷺ «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمةٍّ لوسعتهم» ثم ذكر خبر الغامدية السابق.

٧٠. العقوبات الشرعية تحفظ مصالح المجتمع.

ما ظهر الفساد في البر والبحر إلا بسبب انتهاك الحرمات، وظهور الخبَث، وتعطيل الحدود. وكما استقرّ في النفوس عموم النفع المتولد من الغيث العميم الدائم الذي يشمل الأرض، وبه تظهر الحياة والرّغد، أخبر ﷺ أنّ الحياة والنّفع المترتب على إقامة الحدود في الأرض أعظم من ذلك وأظهر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لحدٌّ يُقام في الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يُمطروا ثلاثين صباحًا»[1].

وقد أجملَ الله سبحانه الغاية الاجتماعية من إيقاع العقوبات الشرعية بقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٩]. فعدّ تطبيق حدود الله تعالى في المجتمع حياةً حقيقيةً لأفراده. ولإعلام أفراد المجتمع بالمقاصد الكبرى التي شُرعت لها هذه العقوبات أمر الله سبحانه بإظهارها، وإشهارها، قال سبحانه في عقوبة من ارتكب جريمة الزنى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢]. والهجر في هذا السياق عقوبة شرعية معتبرة، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والجهاد في سبيل الله تعالى عقوبة شرعية في حق من وجبت عليه، بل هو أرفع أنواع العقوبات التي يسلّطها الله سبحانه على أعدائه. وبهذه الثلاث جميعها يتحقق

(١) صحيح الترغيب والترهيب للألباني، (حديث ٢٣٥٠). قال الشيخ الألباني: حسن لغيره.

استقرار المجتمعات، وصلاحها في أمور معاشها ومعادها، وبه استتباب أمنها، ودوام استقامة أفرادها.

ولأنّ تطبيق العقوبات الشرعية مسؤولية مجتمعية، وتتعلق بها مصالح كثيرة بين الناس فقد أرشد النبي ﷺ إلى الواجب فيها بقوله: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب»[1]. فرغبهم في العفو أولًا، والمعنى: ليعف بعضكم عن بعض - ابتغاء وجه الله تعالى - هذه الحدود التي وقعتم بها، فإن أبيتم إلا رفعها أقيم عليكم حكم الله تعالى.

وإيقاع العقوبات الشرعية بمن استحقها ليست متاحة لكل أحد، بل هي من واجبات ولي الأمر، ومسؤولياته، ولو أتيح للناس الثأر لأنفسهم بأنفسهم لفسدت الأرض، واختلّ نظام الأمن، وسُفكت الدماء واستُحلّت الأموال والأعراض. قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. وإقامة الحدود واجبة على ولاة الأمور، وذلك يحصل بالعقوبة على ترك الواجبات، وفعل المحرمات[2].

والقائم على تنفيذ هذه العقوبات مأمور بتقوى الله تعالى وتحقيق الولاية له سبحانه.. فيوالي فيه، ويُعادى فيه، ولا يقبل فيها شفاعة أحد ولو كان أحبّ

(١) سنن أبي داود، (٤/ ١٣٣) عن عبد الله بن عمرو. قال الألباني: صحيح.
(٢) الحسبة في الإسلام، (ص٤٥).

الناس إليه، ولا تأخذه في تطبيقها لومة لائم، ولو كانت على أقرب الناس منه. عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها تعني رسول الله ﷺ قالوا ومن يجترئ إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: «يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله ثم قام فاختطب فقال: إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(١). وعن يحيى بن راشد قال: جلسنا لعبد الله بن عمر فخرج إلينا فجلس فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حالت شفاعته دون حدّ من حدود الله فقد ضادّ الله، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال»(٢).

٧١. العقوبة الشرعية كفّارة لمن وقعت عليه في الدنيا.

إقامة الحدّ الشرعي كالمصائب التي تحلّ بالعبد فإنّها تارة تكون كفارة وطهوراً من الذنوب، وتارة تكون رفعة وزيادة في الثواب وعلواً في الدرجات، وتارة تكون عقابا وانتقامـًا، بحسب حال الفرد نفسه، وكذلك العقوبات الشرعية فإنّها بحد ذاتها كفارة ورحمة في حق المؤمن، فإن صحبها توبة وندم

---

(١) سنن ابن ماجه، (٢/ ٨٥١). قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) سنن أبي داود، (٣/ ٣٠٥). قال الألباني: صحيح.

واستغفار كانت كفارة ورفعة معـاً، وإن صحبها عتو واستكبار وإصرار كانت عذابـاً، ولـم يكـن فيهـا كفـارة ولا رفعـة[1].

ومـن تأمـل في مقصـد تطهيـر المؤمـن يـوم القيامـة لـم يسـتعظم إقامـة هـذه الحـدود عليـه في الدنيـا، ولا مـا يصحبهـا مـن ألـم وحسـرات، فالدنيـا دار انتقـال واختبـار، وفيهـا مسـتودع الأعمـال خيرهـا وشـرّها، وقريبـاً تنتقـل الودائـع ليـوم التغابـن حتـى يُقضـى بيـن النـاس. فـإذا تولّـد عـن إيقـاع هـذه العقوبـات ألـم في الدنيـا لمـن يسـتحقها، وحسـرة لمـن تـرك بعـده مـن أهـل وذريـة فـإنّ فيهـا فرجـاً وفرحـاً عظيمـاً يـوم القيامـة، وبسـببها يجتمـع الشـمل مجـدداً بعـد انقضـاء الحسـاب. عـن أنـس ﵁ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبـده الخيـر عجّـل لـه العقوبـة في الدنيـا، وإذا أراد بعبـده الشر أمسـك عنه بذنبـه حتـى يـوافي بـه يـوم القيامـة»[2].

والعقوبـات الشـرعية متعلقـة بحقـوق العبـاد، والمقاصّـة فيهـا شـديدة وشـحيحة يـوم القيامـة، فـإذا أقيمـت في الدنيـا أمِـن الجـاني تبعتهـا يـوم القيامـة، أو كاد. عـن سـالم بـن أبـي الجعـد قـال: سُـئل بـن عبـاس عمّـن قتـل مؤمنا متعمـداً ثـم تـاب وآمـن وعمـل صالحـا ثـم اهتـدى، قـال: ويحـه، وأنـى لـه الهُـدى؟. وفي روايـة: التوبـة؟ سـمعت نبيكـم ﷺ يقـول: «يجـيء القاتـل، والمقتـول يـوم القيامـة

(١) في المسألة خلاف، وهذا هو الراجح فيها، والله أعلم.

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم، وهو في صحيح الجامع، (حديث رقم: ٣٠٨).

متعلقٌ برأس صاحبه، يقول: ربِّ سَل هذا لم قتلني؟»، والله لقد أنزلها الله عز وجل على نبيكم، ثم ما نسخها بعدما أنزلها[1].

والرحمة يوم القيامة متعلّقة بذنوب العباد في حقّ ربّهم، لا تلك التي تتعلق بدمائهم وأموالهم وأعراضهم، وهذا الصنف من الذنوب تحت المشيئة، إن شاء الرّب غفرها لهم وإن شاء أخذهم بها. ورحمته سبحانه يوم القيامة أعظم وأشمل. قال بن القيم رحمه الله في ذكر رحمة الله تعالى يوم القيامة: إن جانب الرحمة أغلب في هذه الدار (الآخرة) من الباطلة الفانية الزائلة عن قرب من جانب العقوبة و الغضب، و لولا ذلك لما عمُرت و لا قام لها وجود، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾، فلولا سعة رحمته ومغفرته وعفوه لما قام العالم، ومع هذا فإذا كان جانب الرحمة قد غلب في هذه الدار ونالت البر والفاجر والمؤمن والكافر مع قيام مقتضى العقوبة به ومباشرته له وتمكنه من إغضاب ربه والسعي في مساخطه فكيف لا يغلب جانب الرحمة في دار تكون الرحمة فيها مضاعفة على ما في هذه الدار تسعة و تسعين ضعفاً، . إلى آخر كلامه رحمه الله[2].

---

(١) سنن النسائي، (٢/ ٨٧٤). قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) حادي الأرواح، (١/ ٢٧٣). ولا يُفهم من كلامه رحمه الله مخالفة ما قطعه الله تعالى على نفسه وأنزله في كتبه على ألسنة رسله من إثابة الطائعين ومجازاة المجرمين والظالمين؛ فالجنّة أعدّها للطيبين وحرّمها على المشركين، والنار دار خلود للكافرين، يؤكد ذلك نصوص الوحي المتظافرة، ومنازل النار المتغايرة؛ ففيها من يُخفف عنهم العذاب لسابق نصرته للدين وأهله وإن مات على دين آبائه وأجداده، وفيها موحدون، يعُذبون على قدر أعمالهم ثم يُنصرف بهم إلى الجنّة. وكلّ ذلك يجري مجرى العدل والفضل والرحمة، علم ذلك من علمه وجهله من جهله.

سادساً:

قواعد للتعريف بالعقوبات التي اختصّ اللّٰه تعالى بها المسلمين حال انحرافهم عن أمر ربهم.

٧٢. هذه الأمة مباركة، مرحومة، محفوظة من الفناء والاستئصال.

من شرف هذه الأمّة المباركة: حفظ الله تعالى لها من الفناء العام، فهي أمّة باقية محفوظة من الاستئصال، ولا يلحقها الهلاك العام بمجموعها، كما هلكت الأمم قبلها، وهي باقية قائمة بالحق، وهو قائم بها إلى أن تقوم الساعة. عن جابر بن سمرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يبرح هذا الدين قائمًا، يُقاتِل عليه عصابةٌ من المسلمين، حتى تقوم الساعة»[1]. وعن سعد ﵁ قال: أقبل رسول الله ﷺ ذات يوم من العالية حتى إذا مرّ بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين، وصلّينا معه، ودعا ربّه طويلا ثم انصرف إلينا فقال ﷺ: «سألت ربي ثلاثًا، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي ألا يُهلك أمتي بالسّنة فأعطانيها، وسألته ألا يُهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»[2].

وإنما صارت أمة محمد ﷺ خير أمّة لأنّ المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى، كما قال القرطبي رحمه الله، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وفي هذه الآية مدح لهذه الأمة ما

---

(١) صحيح مسلم، (٣/ ١٥٢٤).

(٢) صحيح مسلم، (٤/ ٢٢١٦).

أقاموا ذلك واتصفوا به. فإذا تركوا التغيير، وتواطئوا على المنكر، زال عنهم اسم المدح، ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سبباً لهلاكهم[1].

وعلى الرغم من شرف هذه الأمّة بمجموعها إلا أنّ المسلمين أنفسهم كغيرهم من البشر.. معرّضون للعقوبة حال انحرافهم، وليس بين الله تعالى وبين خلقه عهد أمان لذواتهم، ولا لأحسابهم ولا لأوطانهم، إنما هو الإيمان والعمل الصالح؛ فما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة، كما يقول ابن عباس ﵄، وكم من حروب مدمّرة، وحرائق ثائرة، وشرور نازلة، وفيضانات غامرة، وأعاصير وزلازل تجتاح المدن العامرة كانت شرارتها الأولى انحرافات اقترفها السفهاء، وتواطأ عليها الجماهير حتى أصبحت عرفا سائداً يُرد على من يخالفه.

وقد ضرب الله تعالى لهذه الأمة قصة أصحاب السبت، وحذرها من مسلك الطائفتين: المذنبة والساكتة بقوله جلّ شأنه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥] قال ابن عباس: كانوا أثلاثا: ثُلث نهوا، وثُلث قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ﴾

---

(١) تفسير القرطبي، (٤/ ١٧١).

وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم[1]. فأهلك جلّ شأنه الساكتين مع تأكيده سبحانه بعلمهم بفساد ما صنع أصحابهم، بل وإقرارهم بسوء مصيرهم وأنّ الله سيعذبهم في الدنيا والآخرة.

وتأديب هذه الأمة يظهر بوجود أيّ من هذين المؤشرين أو كليهما: كثرة الخَبَث واشتهاره، والمجاهرة بالذنب والتفاخر به. عن زينب بنت جحش رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، قالت: خرج رسول الله ﷺ يوماً فزعاً محمرا وجهه، يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلّق بإصبعه الإبهام، والتي تليها، قالت فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[2]. وعن عبد الله بن رضي الله عنه قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ، فقال: «خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا.»[3].

٧٣. عقوبات هذه الأمة تختلف عن عقوبات الأمم قبلها.

تهددّ الله تعالى هذه الأمة حال انحرافها بعقوبات تختلف من حيث مساحة تأثيرها، وشدّتها عن العقوبات التي حقّت بالأمم قبلها؛ أما من حيث مساحة التأثير فإنّ تلك العقوبات لا تشمل الأمة بمجموعها في كلّ

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٩٦).

(٢) **متفق عليه.**

(٣) سنن ابن ماجه، (٢/ ١٣٣٢)، وقال الألباني: حسن.

مكان، بل تنزل على طوائف المعذبين أنفسهم، في المساحة الجغرافية ذاتها. وخصوصية ذلك عائد - بعد استحضار كرامة نبي هذه الأمّة عند ربّه جلّ جلاله - لجملة أسباب، منها والله أعلم: عصمة هذه الأمّة بمجموعها من الاجتماع على ضلالة، بخلاف الأمم قبلها. وهذا ظاهر جليّ فإن الطوائف المنحرفة من هذه الأمّة سريعًا ما تنبري لها طوائف أخرى - معاصرة لها - تأخذ على يدها، وتقيم الحجة عليها، وتحذّر بقية المسلمين من صنيعها، أو الوقوع في جنس الخلل الذي وقعت فيه جراء مخالفة الحق. عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذّ شذّ إلى النار»[1]. وعن إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى قال: قال رسول الله ﷺ: «يرث هذا العلم من كلّ خلَف عُدُولُه، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين»[2].

وأمّا بالنظر في الخصيصة الثانية المتعلقة بشدّة العقوبة نفسها فإنّ العقوبات المُرسلة على من حاد عن أمر ربه من هذه الأمة المباركة ليس من غاياتها: الإفناء والاستئصال الماحق، كما حدث ويحدث للمجتمعات الكافرة، بل التخويف، أو التأديب بإيقاع الألم أو حتى بقطع الأطراف الناتئة التي لا يمكن استصلاحها؛ فتضطرب الأرض من تحت أقدامهم، وتتغيّر الأحوال الجوية، وتجتاح الفيضانات والأعاصير مدنهم وقراهم إلا أن آثارها

(١) جامع الترمذي، (٤/ ٤٦٦). وقال الألباني: صحيح.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي، (١٠/ ٢٠٩). وقال الألباني: صحيح، مشكاة المصابيح، (حديث ٢٤٨).

أهـون بكثير مقارنـة بمـا يحـدث لغيرهـم، ولا يصحبهـا فنـاء شـامل، سـوى تلـك الحـالات التـي تقـترن بعقوبـات مرسـلة علـى الكافريـن في أصلهـا، ولـم يتمايـز عنهـم المسـلمون المجـاورون أو المخالطـون، فيُصيبهـم الهـلاك معهـم، ثـم يُبعثـون علـى نيّاتهـم.

ومع أنّ العقوبة بحصول البأس الداخلي من أشدّ العقوبات التي تقع على هـذه الأمـة، إلا أنّ الأمّـة بمجموعهـا محفوظـة فيـه كذلـك مـن جنـس (البـأس) الـذي وقـع ولا يـزال في المجتمعـات الكافـرة، ومـن بقيـة العقوبـات التـي حلّـت باليهـود والنصـارى؛ كاللعنـة، والغضـب، والضـلال، والمسـخ. بـل الأعجـب في كرامـة هـذه الأمـة عنـد ربّهـا أن يكـون النصـر والظهـور والتمكيـن متولّـد من جنس العقوبـات التـي حلّـت بهـا؛ فافتراقهـا، وحصـول البـأس بيـن أفرادهـا وطوائفهـا ودولهـا سـريعـًا مـا يتحـول إلـى مصـدر قـوة وتمكيـن، حالمـا تـزول أسـبابه، وتبـدأ الأمّـة بالعـودة مجـدداً إلـى كتـاب ربهـا، وسـنة نبيهـا ﷺ.

٧٤. العقوبات التي توعّد الله تعالى بها هذه الأمّة مفصّلة ومُجملة.

العقوبـات التـي توعّـد الله تعالـى بهـا مـن انحـرف عـن منهـج ربـه مـن هـذه الأمـة كثيـرة متنوعـة مـن حيـث التفصيـل، منهـا قـول الله جـلّ جلالـه: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]. قـال السـعدي رحمـه الله: أخـبر تعالـى أنـه لا بـد أن يبتلـي عبـاده بالمحـن، ليتبيـن الصـادق مـن الـكاذب، والجـازع مـن الصابـر، وهـذه سـنته تعالـى

في عباده؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان، ولم يحصل معها محنة، لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردّهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده (بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ) من الأعداء (وَالْجُوعِ) أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله، أو الجوع، لهلكوا، والمحن تُمحِّص لا تُهلك. (وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ) وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك. (وَالأنفُسِ) أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، (وَالثَّمَرَاتِ) أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخُضَر ببرد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد ونحوه[1].

ومما ورد من العقوبات المفصلة ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا

(١) تفسير السعدي، (ص: ٧٦).

البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[١]. وفي رواية: «وما عطّلوا كتاب الله وسنة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم»[٢].

وأما من حيث الإجمال فإنّ مردّ العقوبات التي تهدد الله تعالى بها من انحرف من هذه الأمة تعود إلى ثلاث: الخوف، والجوع، وحدوث البأس الداخلي. بل يمكن إرجاعها إجمالاً إلى عقوبتين ظاهرتين: حصول الجوع والخوف، كما سيأتي.

٧٥. الافتراق والاقتتال الداخلي عذاب هذه الأمّة بسبب انحرافها.

من جملة النعم التي امتنّ الله تعالى بها على قريش، وأمرهم بشكرها: استتباب الأمن، وتتابع الأرزاق، قال جلّ جلاله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[قريش:٣-٤]، ومن بين أشدّ العقوبات التي تهدّد الله تعالى بها هذه الأمة حال انحراف أفرادها: افتراق كلمتها، وتنافر قلوبها، وحصول الاقتال بين طوائفها، حتى يسود الخوف وتتقطع السّبُل. وهذا داخل في جملة العذاب الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «الجماعة رحمة، والفرقة عذاب»[٣].

(١) سنن ابن ماجه، (٢/ ١٣٣٢)، وقال الألباني: حسن.

(٢) **شعب الإيمان (٥/ ٢٣)، وقال الألباني: صحيح لغيره.**

(٣) مسند أحمد، (٣٢/ ٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (حديث: ٣١٠٩).

والتحذير من الافتراق والاختلاف ورد في القرآن الكريم بثلاثة أساليب ظاهرة، الأول: تشبيه من افترق من المسلمين بالمشركين، في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[الروم: ٣٢]. والثاني: تشبيه أولئك المفترقين من هذه الأمة باليهود والنصارى في الحال والمآل، فعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار»، قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: «الجماعة»[1]. والثالث من أساليب التحذير من الافتراق: التأكيد على براءة النبي صلى الله عليه وسلم ممن فرّق دينه من أمته، وخالف هديه، بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[الأنعام: ١٥٩]. وتتأكد هذه البراءة يوم القيامة بصورة أكبر حين يجادل عنهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة بقرب الحوض. عن سعد رضي الله عنه، يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: «أنا فرطكم على الحوض، فمن ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبدا، ليرد علي

---

(١) سنن ابن ماجه، (٢/ ١٣٢٢)، وقال الألباني: صحيح.

أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم، فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سُحقًا، سحقًا لمن بدّل بعدي»[1].

وأشدّ حالات الافتراق عقوبة حين يصحبه الاضطراب والاقتتال حتى يظهر الجوع، ويفشو على إثره الخوف، ويزول الأمن.

٧٦. حصول الاضطراب (واللّبس) مقدّمة لنزول (البأس).

نزول (البأس) في صفوف هذه الأمة من أشد العقوبات التي تهدّدها الله تعالى بها إذا انحرفت عن منهج ربّها. وهو إذا حلّ بأمّة اجتمعت فيها العقوبتان معًا: انعدام الأمن، وظهور الخوف. قال الله جلّ جلاله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥]. وحدوث (اللّبس) يكون بالافتراق، والاختلاف، وظهور الأهواء، وتنافر القلوب، وهو مقدّمة بين يدي العذاب الحاصل (بالبأس) المصحوب بالاقتتال، والخوف، وسفك الدماء.

عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ قال: الأهواء المفترقة. وقال بن زيد: هو الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف، والأهواء، وسفك

---

(١) متفق عليه. وفي رواية عند مسلم: «ليردن عليّ الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رأيتهم ورفعوا إلي اختلجوا دوني، فلأقولن: أي رب أصيحابي، أصيحابي، فليقالن لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»، ويدخل في هؤلاء: من ارتدّ بعد موته عن قرب عهده، ومن ارتد أو فعل كبائر الموبقات من أمته من بعده.

دماء بعضهم بعضاً. وقال بن عباس: يعني بالشيَع والأهواء المختلفة[1].

وعن أبي عبد الله المدني بقراءة الضمّ ﴿يُلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي: يجلّلكم العذاب، ويعمّكم به، وبالفتح ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ أي: يلبس عليكم أمركم، بأن يخلط أمركم فيجعلكم فِرقاً مختلفي الأهواء، يقاتل بعضكم بعضاً. قال القرطبي: والآية عامة في المسلمين والكفار، وقيل: هي في الكفار خاصّة، وقال الحسن: هي في أهل الصلاة. قال القرطبي رحمه الله: وهو الصحيح ـ أي كلام الحسن ـ فإنه المشاهد في الوجود، فقد لَبَسنا العدو في ديارنا، واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضاً، واستباحة بعضنا أموال بعض، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن[2]. وعن عكرمة قال: ﴿عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من الأمراء، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، من السَّفَلة، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾: أي يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق فيجعلَكم فِرقًا، ولا تكونون فرقة واحدة، فإذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضاً[3].

وحصول (اللبس) علامة تحذير وتخويف، كنزول الآيات بين يدي العقوبات، فإذا لم يصادف توبة وإنابة نزلت على إِثره عقوبة (البأس)، ومعها يحصل الاضطراب، وينعدم الأمن، وتتقطع السُبل، ويفشو الخوف، حتى يستبيح بعضهم دم بعض، ويقتل بعضهم بعضاً. ومع أن (اللبس) بحد

---

(١) تفسير الطبري، (٧/ ٢٢١).

(٢) تفسير القرطبي، (٧/ ٩).

(٣) التفسير الكبير، (ج١٣/ ص٢٠).

ذاته عقوبة لما يصحبه من الاختلاف والتفرق والأهواء، إلا أنّه أخف وأيسر من العذاب الذي يقع بالأفراد والدول عند نزول البأس، عياذاً بالله.

ولشدة العقوبة بالخوف قدّمه الله تعالى في منظومة الابتلاءات الخمس التي تهدّد بها من انحرف عن أمره في هذه الأمّة، بقوله جلّ جلاله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

ومن حكمة النبي ﷺ ورحمته بأمته: دعاؤه لها بأن يجنّبها الله تعالى (البأس) الداخلي بقوله ﷺ: «سألت ربّي ثلاثا، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربّي: ألا يُهلك أمتي بالسَّنة فأعطانيها، وسألته ألا يُهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»[١].

وحدوث البأس في هذه الأمّة مقترن بذنوب محددة بعينها، أعظمها: عدم تحكيم شرع الله تعالى، والتخيّر منه بحسب الأهواء والمصالح. قال ﷺ: «وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[٢].

(١) صحيح مسلم، (٤/ ٢٢١٦).

(٢) سنن ابن ماجه، (٢/ ١٣٣٢)، وقال الألباني: حسن.

٧٧. يرتفع عذاب الفرقة في هذه الأمة عندما يشتدّ كيد عدوها.

الحديث عن افتراق هذه الأمة والحديث عن اعتصامها سائرين في مسار كرامتها وبركتها مع تنوّع اختصاصاتها، واتحاد غايتها؛ فهي أمة رحمة واعتصام.. لا يزول عنها ذلك وإن افترقت أكثر مما افترق اليهود والنصارى، أو اجتمع عليها العدو من أقطارها. وما حدث من فيها من افتراق واقتتال لو حدث عُشره في أمّة ظافرة منيعة من أمم الأرض لكان كافياً لزوالها وذهاب ريحها، فكيف لو أضيف له بأس عدوها من خارجها؟

ولك أن تعجب من نسائم الرحمة البالغة من الله تعالى بهذه الأمّة حين يكون ظهور أعدائها واشتداد كيدهم واجتماع كلمتهم للقضاء على الإسلام سبب لاجتماع أفرادها واعتصامهم ومؤذن بعلو كلمتهم وتحقيق نصرهم والتمكين لهم في النصر. حديث عوف بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يجمع الله على هذه الأمة سيفين، سيفا منها، وسيفا من عدوها»[١]. قال المناوي: يعني أنّ السيفين لا يجتمعان الى استئصالهم، لكن إذا جعلوا بأسهم بينهم سلّط عليهم العدو وكفّ بأسهم عن أنفسهم[٢].

وهذا ما حدث، ويحدث برحمة الله تعالى حيث نجد أنّ طوائف هذه الأمة وجماعاتها ودولها حين تجعل بأسها بينها لجهلها أو بتحريض من عدوّها، ثم تبدأ بقتال بعضها إلى درجة توشك فيها على الدخول في دوامة

(١) سنن أبي داود، (٤/ ١١٢)، وقال الألباني: صحيح.
(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير، (٢/ ٣٠٣).

الاستئصال أو مقدماته، يسلّط الله تعالى عليها في لحظة مفاجئة عدواً من خارجها، فيكفّ بأسها عن نفسها، ثم يوحّد صفوفها ويجمع كلمتها ضد عدوها، وهذا ما لم يكن لأمة من الأمم غيرها.

وليس أيّ اجتماع يكفي، ولا كل اتحاد يُغني ويكون معه النصر والتمكين للمسلمين حتى يكون اجتماعاً على كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، وحتى يتركوا التحزّب والتعصب للمذاهب والجماعات، والقبائل والدول، والفِرق والأحزاب كلها، وتكون ملتهم واحدة، وقدوتهم واحدة، وغايتهم واحدة، وموالاتهم ومعاداتهم لله وفي الله، وحتى يكون جهادهم تحت الاسم الجامع الذي اختاره الله لهم بقوله جلّ شأنه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

٧٨. حصول القحط والجوع عقوبة تحلّ بهذه الأمّة حال انحرافها.

ظهور الجوع والقحط، بعد حال الرغد والرخاء، وسعة الأرزاق، عقوبة ينزلها الله تعالى بالأمم الظالمة، وهي من جنس ما تهدّد الله تعالى به هذه الأمّة على وجه الخصوص حال انحرافها عن منهج ربّها.

وهذه العقوبة قرينة الجحود، والكفران، وهي لا تجتمع مع الشكر، والإيمان، واتباع هدي الله عزّ وجل؛ لأنّ الله تعالى قضى بالأمن ورغد

العيش لأهلها بقوله جلّ شأنه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ (طه: ١٢٣-١٢٤] وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والعقوبة بالجوع مقرونة بتوقّف نمو الزرع والضرع بسبب الجدب، وانقطاع المطر على درجة غير معهودة، وارتفاع الأسعار، وشح الغذاء أو انعدامه. وهي عقوبة عدل وقهر، داخلة في منظومة العقوبات الاقتصادية التي تهدد الله تعالى بها عباده حال انتقالهم من الإيمان والشكر، إلى حال الجحود والكفر، قال جلّ شأنه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]، فذكر سبحانه أنّ تحريم الطيبات على بني آدم حالة طارئة سببها فشوّ الظلم بنوعيه: ظلم الأديان بالشرك والبدعة ومفارقة الدين، وظلم العباد بقهرهم والاستطالة على أموالهم، ودمائهم، وأعراضهم بغير حق.

وقد حكم الله تعالى الكريمُ المُنعمُ الرحيمُ بأنّ الكفر بحد ذاته ليس مانعًا من نزول الرزق، وحصول الرغد في العيش، وفشوّ التجارات، قال جلّ شأنه معقّبًا على دعوة خليله إبراهيم لمّا دعا ربّه لبلده المعظّم، وبيته المحرّم بأن يجعله آمنا، ويرزق أهله (المؤمنين) من أنواع الثمرات: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]. فأرشده جلّ

جلالـه إلـى أنّ رزقـه شـامل للمؤمـن والكافـر، والعاصـي والطائـع. والمعنـى: ومـن كفـر في هـذا البلـد المقدّس وغيـره فإنّي أرزقـه كالمؤمنيـن، وأتفضـل عليهـم كلّهـم، مسـلمهم وكافرهـم، أمـا المسـلم فيسـتعين بالـرزق علـى عبـادة ربّـه، ثـم ينتقـل منـه إلـى نعيـم الجنـة، وأمـا الكافـر، فيتمتـع فيهـا قليـلا، ثـم يخـرج منهـا مكرهـا إلـى عـذاب النـار وبئـس المصيـر[١].

غيـر أن الكفـر إذا تعدّى فسـاده إلـى غيـره فإنّ العقوبـة سـريعـًا مـا تنـزل علـى أثـره، ويتحصـل ذلـك في ثـلاث حـالات، الأولـى: حيـن يجتمـع الظلـم المتحقـق بالكفـر مـع الصـدّ عـن سـبيل الله تعالـى، ومحاربـة الإسـلام وأهلـه، (وتقنيـن) الفسـاد والفواحـش، ومخالفـة الفطـرة الإنسـانية بقـوة القانـون. والثانيـة حيـن يجتمـع الكفـر مـع الظلـم المنـافي للعـدل، حتـى يفشـو قهـرُ النـاس، والسـطو علـى أموالهـم، وأعراضهـم، ودمائهـم بغيـر حـق وبسـبب هاتيـن الحالتيـن تتنـزّل العقوبـة ويحـلّ غضـب الـرّب جـلّ جلالـه.

وأمّـا الثالثـة فحيـن يقيـم النـاس علـى الكفـر الـذي لا صـدّ فيـه عـن الحـق، ولا حـرب علـى أهلـه، ويقيمـوا بينهـم العـدل الـذي تتولـد عنـه الرحمـة بالنـاس. وبسـبب هـذه الحـال يسـوقُ المنعـمُ الكريـمُ الأرزاق، ويفشـو الرغـد، وتصلـح بـه الأرض، ويحصـل النمـاء للـزروع والثمـار والانعـام. وهـذا مـا رأينـاه في عصرنـا، وقرأنـا عنـه في العصـور المتقدّمـة، وبسـبب هـذه الحـال يكـون الـروم أكثـر النـاس في آخـر الزمـان؛ فعـن المسـتورد القرشـي قـال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول: «تقـوم السـاعة والـروم أكثـر النـاس». فبلـغ ذلـك عمـرو بـن العـاص فقـال: مـا هـذه

---

(١) بتصرف من: تفسير السعدي، (ص: ٦٦).

الأحاديث التي تُذكر عنك أنك تقولها عن رسول الله ﷺ؟ فقال له المستورد: قلت الذي سمعت من رسول الله ﷺ، فقال عمرو: لئن قلت ذلك، إنّهم لأحلمُ الناس عند فتنة، وأجبرُ الناس عند مصيبة، وخيرُ الناس لمساكينهم وضعفائهم[1].

٧٩. عقوبة الجوع في حقيقتها مركبة من عقوبتين.

حصول العقوبة بالجوع مركب في حقيقته من عقوبتين، الأولى: عقوبة الحرمان من الطيبات، والأرزاق، وانتشار الأمن، والنماء، والرَّغَد. والثانية: حصول الجهد والقحط، واشتداد الفقر. وكلا العقوبتين وردتا في حق المجرمين بسبب كفرهم وجحودهم واستكبارهم، قال الله جلّ شأنه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال سبحانه على لسان نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢]. وقال جلّ جلاله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. وفي هذه الآية علامتان ظاهرتان لنزول البؤس والشقاء في المجتمعات والدول: تبدّل حالها إلى

(١) صحيح مسلم، (٤/ ٢٢٢٢).

الخوف، بعد الأمن والاطمئنان الذي كانت تنعم به، ويضرب بها المثل فيه. وحصول الجوع بعد الرغد والأرزاق التي كانت تُجلب إليها من كل مكان.

والتعبير باللباس يحمل معنى بلاغياً معبّراً؛ فكما أن اللباس هو الجزء الظاهر الذي يُعرف به حال الأفراد من حيث الفقر والغنى، والشدّة والرغد، فهكذا لباس الجوع ولباس الخوف إذا تسربلت به الأمم والدول عند نزول العقوبة حيث لا ينفكّ ألمه عنهم، ويخالط أذاه أجسامهم كما يخالطها اللباس الملاصق لها، ليكون برهاناً وعلامة صادقة للناس على أن ما أصاب هذه القرية وأمثالها إنما هو عقاب من الله تعالى، عياذاً بالله من سخطه.

والتعبير باللباس يدلّ على الفرج كذلك؛ فكما أن اللباس قابل لأن يُنزع بعد أن يُلبس لأنّه خارج عن ماهية البدن، فكذلك العقاب إذا نزل نتيجة استحقاق فإنه قابل لأن يُرفع بحسب صدق توبة المعذبين، واقترابهم من رحمة ربّهم التي وسعت كل شيء.

٨٠. اجتماع الجوع والخوف عقوبة مؤلمة لا طاقة لأحد بها.

إذا كانت كل من عقوبة الجوع وعقوبة الخوف كافية بمفردها للانتقام من الأمم التي حادت عن أمر ربها فكيف إذا اجتمعتا معاً في صورة أزمة سياسية ضاربة يختلّ بسببها الأمن الداخلي، وأزمة اقتصادية تشلّ حركة التجارة، وتتقطّع بسببها السُّبُل؟ إن العذاب عندها لن يُطاق، ولا يمكن الخلاص منه.

وقد تعرضت دول وأقاليم من هذه الأمة في بعض فتراتها لاجتماع العقوبتين معـًا على درجة مخيفة لمّا انحرفت عن منهج ربها وتولى أمرها من لا يحسن سياستها وتدبير أمرها. نقل ابن كثير عن ابن الجوزي رحمهما الله تعالى بعض ما حدث ببغداد سنة ثلاثين وثلاثمائة، وكيف جمع الله للمسلمين فيها بين التخويف بآية كونية سماوية، وأخذِهم بشدّة الجوع والبلاء إلى أن رحمهم سبحانه وفرّج عنهم، قال ابن كثير: في المحرّم ظهر كوكب بذنب، رأسه إلى المغرب وذَنَبه إلى المشرق، وكان عظيمـًا جداً، وذَنَبه منتشر، وبقي ثلاثة عشر يومـًا إلى أن اضمحلّ. وفي نصف ربيع الأول بلغ الكر من الحنطة مائتي دينار، وأكل الضعفاءُ الميتة، ودام الغلاء، وكثُر الموت، وتقطّعت السُبل، وشُغل الناس بالمرض والفقر، وتركوا دفن الموتى، وشُغلوا عن الملاهي واللعب[1].

وقال رحمه الله في موضع آخر: ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وفيها اشتد الغلاء بأرض مصر جداً، فهلك خلق كثير جداً من الفقراء والأغنياء، ثم أعقبه فناء عظيم، حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل أنّ العادل كفّن من ماله في مُدّة شهر من هذه السنة نحواً من مائتي ألف وعشرين ألف ميّت، وأُكلت الكلاب والميتات فيها بمصر، وأُكل من الصغار والأطفال خلق كثير، يشوي الصغيرَ والداه ويأكلانه، وكثُر هذا في الناس جداً حتى صار لا يُنكر بينهم. فلما فرغت الأطفال والميتات غلب القوى

(١) البداية والنهاية، (١١/ ٢٠١).

الضعيف فذبحه وأكله.. وفيها ـ أي في هذه السنة ـ وقع وباء شديد ببلاد عنزة بين الحجاز واليمن، وكانوا عشرين قرية، فبادت منها ثماني عشرة، لم يبق فيها ديّار ولا نافخ نار، وبقيت أنعامهم وأموالهم، لا قاني لها ولا يستطيع أحد أن يسكن تلك القُرى ولا يدخلها، بل كان من اقترب إلى شيء من هذه القرى هلك من ساعته، نعوذ بالله من بأس الله وعذابه، وغضبه وعقابه، أما القريتان الباقيتان فإنهما لم يمت منهما أحد، ولا عندهم شعور بما جرى على من حولهم، بل هم على حالهم لم يُفقد منهم أحد، فسبحان الحكيم العليم[1].

وفي كتب التاريخ القديم والحديث عظات ووقائع كثيرة ـ مثل هذه ـ لمن اعتبر، وفيه مصائب وحوادث وعقوبات حلّت بالمسلمين نتيجة تساهلهم في أمر دينهم، وانحرافهم عن منهج ربهم، وعدم أخذهم على أيدي السفهاء والظلمة منهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(١) البداية والنهاية، (١٣/ ٢٦).

سابعاً:

قواعد للتعرف على أسباب تنزل العقوبات بالأفراد والجماعات.

٨١. معرفة أسباب العقوبات تتحقق بالرجوع للكتاب والسنة.

أخبر رسول الله ﷺ أنّ العاصم لهذه الأمة من الفتن والابتلاءات: رجوعها لكتاب ربّها وسنة نبيها، بقوله ﷺ في حجة الوداع: «يا أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله، وسنّة نبيه ﷺ»[١]. وقوله ﷺ: «وما عطّلوا كتاب الله وسنّة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم»[٢].

وقد أخبر النبي ﷺ أمّته بما سيصيبها بعده، وأرشدها بما يجب عليها عند ذلك في أحاديث كثيرة، منها ما هو خاص، ومنها ما هو عام، ومنه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلا فمنّا من يُصلح خباءه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جَشَرِه، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقّا عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم، وإن أمَّتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء، وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقِّق بعضها بعضـًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه »[٣].

---

(١) **المستدرك للحاكم، (١/ ١٧١) وقال الألباني: صحيح.**

(٢) **شعب الإيمان (٥/ ٢٣)، وقال الألباني: صحيح لغيره.**

(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٢). ومعنى (ينتضل): من المناضلة وهي المراماة بالسهام، وقوله: (في جَشَرِه) أي: مع الدواب التي ترعى وتبيت مكانها.

كما أخبر ﷺ عن الفتن التي ستُصيب أمّته من بعده، ووصف حال الناس معها، بقوله: «بادروا بالأعمال؛ فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[1]. والوصية بالمبادرة بالأعمال الصالحة لكثرة ما يعترضها من العوائق بسبب الفتن المظلمة كقطع الليل الحالك التي لا يُرى فيها النور، ولا يُعرف فيها الحق بسبب الشهوات والشبهات، وكثرة الصّد عن سبيل الله تعالى.

وأفهام البشر تختلف في تحديد ماهية الفتن إذا أحاطت، والعقوبات الإلهية إذا نزلت، فإذا رسخت وتمكنت واتضحت لكل أحد، انتقل الخلاف فيها إلى تحديد أسبابها، فإذا اتضحت تركّز الاختلاف والاضطراب بعدها في طرق الوقاية منها؛ وسبب ذلك كله عائد إلى اختلاف أفهام البشر، فإذا اتفقوا على مرجع يلجؤون إليه في تحديد ماهية العقوبات والفتن، وتحديد أسبابها وطرق الوقاية منها اجتمع أمرهم، واتحدت كلمتهم، ولا مرجع يعصمهم سوى كتاب الله عزّ وجل وسنّة رسوله ﷺ، وبهذا أصبح مردّ صلاح الأمر كله في مبدئه ومنتهاه: كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

٨٢. الذين حقّ عليهم العذاب لا خير فيهم.

من الحقائق التي أخبر عنها القرآن الكريم في معرض الحديث عن إهلاك المعذبين: علمُ الله تعالى السابق باستحقاق المعذبين للعقوبة، وتنزيهه

(١) صحيح مسلم، (١/ ١١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سبحانه عن الجهل والظلم، قال سبحانه في سياق رفع العقوبة عن قوم يونس بعد أن ظهرت علاماتها وحان أوانها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس: ٩٦-٩٨]

وهذا النص الكريم يحمل هداية بالغة في تحديد سمات المعذّبين من الأفراد والأمم، كما يؤكد بأنّ الذين يحقّ عليهم العذاب في علم الله تعالى السابق قوم أراذل، متكبّرون، وظالمون لا خير فيهم، وأنهم لا ينتفعون بوسائل الإدراك مهما رأوا الآيات، ولا يوفّقون للتوبة والندم مهما تنزّلت عليهم القوارع، وتُليت على مسامعهم العِظات؛ وذلك لفساد قلوبهم، وسوء أعمالهم. ولو علم الله تعالى فيهم خيراً لسمعوا المواعظ والزواجر سماع انتفاع وتبصّر.

ومن دلائل القرآن في تأكيد استحقاق المعذبين للعقوبة: شهادتهم على أنفسهم إذا رأوا العذاب. وشهادة المرء على نفسه أبلغ وأقطع للنزاع، قال جلّ جلاله: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٤-٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٧]. وأصرح ما جاء في ندم المعذبين ولات حين مندم: حسرتهم على التفريط وآثاره المؤلمة بعد وقوع

العقوبة الدنيوية، قال الله تعالى في شأن أصحاب الجنة الذين رأوا بأعينهم آثار جحود نعمة ربّهم: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ [القلم: ٢٩- ٣١].

وقد أخبر الحقّ جلّ جلاله عن حقيقة نفسية تتعلق بهؤلاء المعذبين وهو أنّ تفاعلهم وقتي حال رؤية العذاب فحسب وإلا فلا بدائل لهم سوى الكفر والاستكبار، ولو عادوا بعد العقوبة لعادوا لما نهاهم الله تعالى عنه، ثم لاستحقوا العقوبة كَرَّة أخرى. قال الله جلّ شأنه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وقال تعالى محذراً من حالهم: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١- ٢٣].

وهذا التشبيه لهم بالدواب سببه عدم انتفاعهم بوسائل الإدراك الحسي والعقلي ولا بآيات الكون للوصول إلى الله تعالى والإيمان به فهم ولا يستعملون عقولهم وأفهامهم إلا في حدود ما تنتفع به الدواب والحيوانات مما يحقّق لها النفع والرفاه في هذه الحياة، ولا يكادون يستعملونها في التمييز بين النافع والضار، والطيب والخبيث، ولا في إدراك الغاية التي خلقهم الله تعالى لأجلها، والمصير الذي سينقلبون إليه بعد موتهم. وهذا ما أقرّوا به على أنفسهم يوم القيامة بقولهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠]

كما أخبر سبحانه أنّ الواحد منهم يتمنى أن لو كان ترابًا، كالحيوانات التي يُفرغ من الفصل بينها في ذلك اليوم. بل لقد أخبر الله عز وجل عنهم بأنهم شرّ الدواب التي تسير على وجه الأرض بقوله جلّ جلاله: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٤-٥٥]. ومع كثرة ذنوب الاستحقاق للعقوبات، وتعدّد أسبابها إلا أنه يمكن انتظامها في الأسباب التالية:

٨٣. الشرك بالله تعالى أعظم الظلم الذي تتنزل بسببه العقوبات.

الشرك بالله تعالى هو الظلم العظيم، وهو أخطر الذنوب على الإطلاق حالاً ومآلاً، حيث يعجّل الله تعالى بسببه العقوبة في الدنيا، مع ما يدّخره للمشركين من العذاب في الآخرة، قال جلّ جلاله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨]. وقال سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٩- ٦٠].

ولمكانة التوحيد كان أول ما يؤمر به على الإطلاق، وأعظم ما يُبدأ بطلبه، ولخطورة الشرك كان أول ما يُنهى عنه على الإطلاق، وأعظم ما يُحذّر منه. ومن بدأ بغير الأمر بالتوحيد والتحذير من الشرك فهو جاهل، ومن جاوزه

عمداً لينهى عن سواه فهو ضالّ، قال جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]

وبسبب الشرك أهلك الله تعالى الأمم والدول الغابرة والحاضرة، وأغرق لأجله من أغرق، وأحرق من أحرق، وخسف بمن خسف، وأزال لأجله أئمة الظلم، وأساطين الكفر، وامبراطوريات الضلال، ودول الإلحاد على مدار التاريخ، قال جلّ جلاله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]. وكم من أمة ممكّنة خوت عروشها، ودولة قائمة زالت قصورها بسبب الشرك، قال الله عزّ وجل: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٤]. وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود ١٠٠- ١٠٣]

ومن قرأ ونظر وسمع عن أحوال المشركين في أيّ زمان ومكان أدرك أنهم معاقبون بأنواع العقوبات، وإن جهلوا أسباب بعضها، وسعوا جاهدين

للخلاص منها؛ عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم، أو عذاباً في أجسادهم، وفرقة ونُفرة في مجتمعهم.

وكل من صرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى ناله من ذلك العذاب بقدر انحرافه: سجوداً لغير الله جلّ جلاله، أو استغاثة، واستعانة، وذبحاً، ودعاء لمخلوق من دون الله، ونحوها من مظاهر الشرك التي هي في واقعها مظاهر خُذلان، وسَخط، وبراهينُ استحقاق للعقوبة في الدنيا والآخرة. قال الله جلّ شأنه: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٥ – ١٠٧]

٨٤. اجتماع الشرك مع ظلم العباد سبب لتنزّل العقوبات التراكمية.

العقوبات التراكمية هي تلك التي حقّت بعد سلسلة طويلة من الإمهال على ذنوب تستوجب نزول العذاب، وأشدّها ما اجتمع فيها ظلم العباد أنفسهم ـ بالشرك وارتكاب الموبقات ـ وظلم الآخرين. قال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحج: ٤٨].

ولأنها عقوبات أعذر الله تعالى فيها من المجرمين فقد جاء التعبير عنها (بالأخذ)، قال الله جلّ شأنه: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢]، وقد تكرر التعبير بالأخذ في غير

آية من كتاب الله تعالى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤]. والتعبير بالأخذ لبيان طريقة نزول العذاب مناسب للإمهال والإطلاق الطويل جراء الذنوب التي لم يُقلع عنها الظالمون؛ فكّانّ من حقّ عليه هذا النوع من العقوبة أصبح في حُكم (الأسير) الذي أمر الملِك بأخذه جراء تماديه مع استخفافه وغفلته، ولم تعد له قدرة على الخلاص.

كما وُصف هذا النوع من العقوبة بالأليم الموجع. عن أبي موسى الأشعري ﵁ عن النبي ﷺ قال: «إنّ الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته»، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. ومن تأمّل في أسباب سقوط الأمم والدول وجدها بسبب هذا النوع من العقوبات الماحقة؛ جراء دعوات المظلومين، وإن تأخر الانتصار لها حيناً من الدهر لحِكم يعلمها الله تعالى. عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الأمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم.. يرفعها فوق الغمام وتُفتح لها أبواب السماء ويقول الرّبّ عز وجل: وعزتي لأنصرنّك ولو بعد حين»[1]. وقد ورد في أخبار سقوط الأمم والدول ما يشهد بذلك. ذكر الذهبي عن الوزير يحيى البرمكي وزير العباسيين وصاحب الدولة والمُلك أنّ ولده قال له وهما في

---

(١) جامع الترمذي، (٤/ ٦٧٢). قال الألباني: حديث صحيح.

السجن، وعليهما القيود: يا أبه بعد الأمر والنهي والأحوال صِرنا إلى هذا؟ فقال: يا بُنيّ دعوة مظلوم، غفلنا عنها، لم يغفل الله عنها. وكان يحي يقول: الدنيا دُول، والمال عاريّة، ولنا بمن قبلنا أسوة، ولمن بعدنا عبرة[1].

٨٥. الإعراض عن الله تعالى من أعظم أسباب الوقوع في العقوبة.

ما وقع البشر ـ أفراداً وجماعات ـ في ذنب أجدر أن يعجّل الله لهم العقوبة بسببه كالإعراض عن الله جلّ جلاله، فلا يتعلمون وحيه، ولا يطلبون هديه، ولا يتبصّرون في آياته، ولا يعظمون حرماته بل يخوضون فيها ويقعون في القبائح لا يرجون لله وقاراً، ولا للآخرة حضوراً وسؤالا. وقد أخبر جلّ شأنه بأن هذا الذنب من جنس الذنوب التي يعجّل الله تعالى لصاحبها العقوبة في الدنيا قبل الآخرة بقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٤-١٢٧]، والمعنى: من أعرض عن كتابي الذي به جميع المطالب العالية، فيتركه على وجه الإعراض عنه، أو الإنكار له، والكفر به ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: ضيّقة شاقّة، من الهموم، والغموم والآلام التي تلازمه؛ عذابـًا له في الدنيا، وعند نزول القبر، فإذا بُعث من قبره فإنه يُحشر ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ لا يُبصر، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، (ج١٢/ ص٤٥١).

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾. فيقول على وجه الذلّ، والمراجعة، والتألّم، والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ في دار الدنيا، فيجيبه ربّه أنّ سبب ذلك إعراضك عن آياتي الكونية والشرعية التي جاء بها رسلي وأنزلته في كتبي ونشرتها في الكون من حولك، ﴿فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾، أي: تُترك في العذاب. وهذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل، فكما عَمِيتَ عن ذكر ربك، وعشيت عنه ونسيته ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فحُشرت إلى النار أعمى، أصمّ، أبكم، وأُعرض عنك، ونُسيت في العذاب[1].

٨٦. الصدّ عن سبيل الله تعالى، ومحاربة دينه مؤذن بتنزّل العقوبة.

من جملة الأسباب التي توعّد الله تعالى عليها بالعقوبة العاجلة: صدّ الناس عن سبيله، وفتنهم عن دينه بالشبهات والشهوات. ويدخل في هذا الصدّ: محاربة دين الله تعالى، والتضييق على الآمرين به، والداعين إليه، والعاملين به، وبخاصة: العلماء، والمجاهدين، والدعاة المصلحين الذين ما نقموا منهم ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩].

ومما يدخل في الصدّ عن سبيل الله تعالى: الوقوف سنداً لأعدائه في حرب الله ورسوله، وهذا النوع من الصّد شعار الكفر، ودثار النفاق على

(١) بتصرف من تفسير السعدي، (ص: ٥١٥).

الحقيقة، قال الله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩].

والصادّون عن سبيل الله ملعونون في كتاب الله، قال جلّ جلاله: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [هود: ١٨-١٩]. وقد جاء التأكيد على استحقاق كل أنواع الصّد عن سبيل الله تعالى للعقوبات المؤلمة، المعجّلة والمؤجلة، قال الله جلّ جلاله في شأن الذين يصّدون الناس عن حَرَمه المعظّم، وبيته المكرّم: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

كما أخبر سبحانه أنّ كثرة الصّد للناس عن سبيله، وتنويع سُبل ذلك الصّد، وأنواعه سبب رئيس لحصول التنافر والافتراق في المجتمع، وتوقف حركة الاقتصاد، وقطع الأرزاق، وفشوّ الجوع، وشحّ الموارد، وغلاء الأسعار، وحصول الجدب والقحط، قال سبحانه: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠].

كما وصف الله سبحانه عذاب من صدّ عن سبيله بأنه (أليم)، يجد صاحبه شدّة الألم من جرائه، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [التوبة: ٣٤]. كما وصف جلّ جلاله عذاب من صدّ عن سبيله بأنه (شديد)، فيه شدّة وقسوة لا تحتملها أبدانهم الضعيفة بقوله سبحانه: ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴾ [إبراهيم: ٢-٣].

وهذا الاقتران مهم بين إرادة العِوَج من جراء الصّد عن سبيل الله تعالى، وهو يكشف خطط المجرمين على مدار التأريخ؛ فالله تعالى يريد أن تكون حياة الناس مستقيمة، يعتدل فيها سير السالكين إليه، وهؤلاء يريدونها (عِوَجًا) منحرفة، صادّة عن سواء السبيل، فالناس تحت هؤلاء (المعوجّين) على الدوام بين جائع وخائف، لا يأمنون فيها على أديانهم، ولا على دمائهم، ولا على أموالهم، ولا على أعراضهم.

وقد تكرر هذا التأكيد بين طلب (العوج) والسعي للصدّ عن سبيل الله تعالى خمس مرات في القرآن الكريم، منها قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقوله جلّ شأنه: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا

وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ [هود: ١٨ -٢٢]. قال بن كثير رحمه الله: (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله، وشرعه، وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن يكون السبيل المستقيم سُبُلاً معوجّة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد[١].

٨٧. الحكم بغير ما أنزل الله تعالى من أسباب نزول العقوبة.

إذا كانت السعادة والنماء للبشرية وصلاح جميع أحوالها إنما تظهر عند تطبيق شريعة الله تعالى فإن البؤس والشقاء في الدنيا والآخرة يرافق كل من استبدلها بغيرها من قوانين البشر وأنظمتهم وأعرافهم الوضعية. بل إنّ مظاهر البؤس البشري إنما تبدأ حين يعلن البشر تمرّدهم عن خالقهم، واستغنائهم عن حوله وقوته، مكتفين بحولهم وقوتهم، وبما (عندهم) (ولهم) من العلم، والقوة، وخوارق الآلات، والصناعات، والمخترعات، التي تجعلهم أقرب إلى خوارق المسيح الدجال الكاذبة، وأسرع إلى الإيمان به وتصديقه حل ظهوره! [٢]

---

(١) تفسير ابن كثير، (٢/ ٢١٧).

(٢) انظر الفائدة ١٣٩ من مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله بعنوان (الحكمة من الاستعاذة من فتنة المسيح الدجال في كل زمان ومكان) وكيف ربط بين فتنة ظهور الإلحاد وفشو الصناعات وتعلقها بالدجال.

وقد وصف الله سبحانه عذاب من حكم بغير ما أنزل الله بأنّه (شَدِيدٌ)، يجدون شدّة الألم والقسوة من جرائه، قال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]. كما أخبر ﷺ عن صنف العذاب الدنيوي الذي أرصده الله تعالى لمن لم يحكم بما أنزل الله بقوله: «وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[1].

وإذا كانت خطورة هذا الذنب بهذا القدر فإنّ مجرد كراهة ما أنزل الله تعالى أو بعض ما أنزل ومُحبط للعمل، وموقع في الكفر، وسبب لتنزّل العقوبة وإن حصل تطبيق لشرع الله في الظاهر، رياء وسمعة، قال جلّ شأنه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد: ٨-٩].

ومن لوازم الحكم بغير ما أنزل الله تعالى، أو كراهته أو كراهة بعضه: الاعتراض الصريح على شرع الله تعالى، والاستكبار عن عبادته، وعدم الاستسلام والانقياد له سبحانه، مع المنازعة الظاهرة له في حكمه وأمره. ومن لوازم الحكم بغير ما أنزل الله تعالى: الاعتقاد الفاسد بأنّه عزّ وجلّ لا يعلم مصلحة خلقه، وأنّ سعادتهم إنما تكون في اتباع غير هديه، ولهذا

(١) سنن ابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، (٢/ ١٣٣٢)، وقال الألباني: حسن.

لا يقرّون بفسادهم إذا: ﴿قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ لأنهم يعتقدون أن صنيعهم ذلك هو عين الإصلاح، ولا يرون بهم حاجة للإيمان إذا: ﴿قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾.

وحلول اللعنة والغضب في حق من حكّم بغير شرع الله تعالى مرحلة لاحقة لمرحلة سابقة هي مرحلة الاستدراج التي تبدأ بإعلان (الاستغناء) أولاً.. الاستغناء عن دين الله تعالى، والاستغناء عن شرعه، والاستغناء عن فطرته الدينية والإنسانية التي فطر البشر عليها، وهداهم إليها، وتنتهي بإعلان (الاكتفاء).. الاكتفاء بقوانينهم الوضعية، وفطرتهم الحيوانية، واتباع أهوائهم، وتحليل ما حرّم ربهم عليهم، وتحريم ما أحلّ لهم، وبها يصيبهم الله بقوارع العقوبات في الدنيا والآخرة، قال جلّ جلاله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

والعقوبة المنزّلة على من حكم بغير ما أنزل الله في حقيقتها عقوبتان: عقوبة على الذنب نفسه، وعقوبة على ما يصدر عنه من فساد وظلم وانحراف؛ لأنّ حكم البشر نابع من جهلهم، ومتأثر بأهوائهم ورغباتهم، وهو يؤدي بهم إلى الضلال ولا شك.

وكل حكم بشري محض يناقض حكم الله تعالى ما هو في حقيقته إلا اتباع للهوى، والهوى يقود صاحبه إلى الظلم، وإلى كل سبيل أعوج ينتج عنه

اضطراب أحوال الناس، وتضييع مصالحهم في معاشهم ومعادهم. وعقوبة الحكم بغير ما أنزل الله تعالى في حقيقتها محصلة لعواقب الظلم والجهل والهوى الذي ينشأ من ذلك الحكم. قال الله جلّ شأنه: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٣٥-٣٦].

٨٨. تسلّط المترفين، والركون للظلمة الفاسقين من أسباب الهلاك.

من الأسباب المؤدية لزوال الأمم، وسقوط الدول: تسلط المترفين، وتأمّر أهل الفسق والفجور، واستطالتهم على أموال الناس وأعراضهم بغير حق، قال الله عز شأنه: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]. قال السعدي رحمه الله: يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب أمر مترفيها أمراً قدرياً ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم، ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ ﴾ أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها[1].

ومن الأسباب: الركون للظلمة، وتبرير ظلمهم، وإعانتهم على ظلمهم بالقول أو الفعل، مع محاباتهم وحصول المخاصمة والمجادلة عنهم، والتحرج من الإنكار عليهم، وحجزهم عن ظلمهم. قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟

(١) تفسير السعدي، (ص: ٤٥٥).

﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥ – ١٠٧]. عن قيس بن أبي حازم، قال: قام أبو بكر رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه، أوشك أن يعمهم الله بعقابه»[١].

٨٩. المجاهرة بالمعاصي والإعلان بها مؤذن بتنزل العقوبة العامة.

يتعاظم الذنب بمقدار حجمه، وعند الإصرار عليه، وبما يصحبه من مجاهرة واستخفاف بنظر الله تعالى. وإذا انتقلت الذنوب من ظلام الخفاء، وكشفت جلباب الستر والحياء عن وجهها القبيح وتحول أهلها إلى مرحلة المجاهرة والقحة والعلن، وأمنوا مكر الله تعالى فقد تعرضوا لسخط الله تعالى واستوجبوا نقمته. وتتأكد العقوبة على الذنوب وتزداد شدتها إذا سُنّت الأنظمة والقوانين لتكريس المجاهرة بها، وتهيئة السُّبل أمامها، والتضييق على من أراد مدافعتها والإنكار عليها، قال صلى الله عليه وسلم: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط،

(١) سنن ابن ماجه، (٢/ ١٣٢٧). وقال الألباني: صحيح.

حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»[1].

والمجاهرة بالذنوب على دركات، بحسب تفاوتها من حيث المقت واستحقاق العقوبة، فمنها: المجاهرة بذنوب يعتقد أصحابها حرمتها، ويشعرون بالذنب حال ارتكابها، ومنها المجاهرة بذنوب لا يشعر أهلها بالحرج من ارتكابها، ولا يعتقدون حرمتها؛ لما يتوافر لها من السند القانوني، وتذليل أسبابها، وتيسير وفتح مرافقها الاجتماعية بدعوى الحفاظ على الحرية الشخصية، حتى يصل الجهل بالناس إلى المحافظة على هذا الصنف من الذنوب، واعتباره مكسباً اجتماعياً، وموروثاً وطنياً درج عليه الآباء، ولا يصح التفريط فيه!! وهو جنس الضلال الذي وقع فيه المشركون الذين أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨]. بل يصل الضلال مبلغه حين يتعبد الناسُ ربهم بجنس هذا النوع من الذنوب، ويتقربون إليه بها، ويصبح ما يبغضه الله تعالى ويأباه هو عين ما يريده ويرضاه، وهذا من الضلال المبين، وهو من جنس ما وقع فيه اليهود الذين استحلّوا محارم الله تعالى بالحيَل ولبسّوا الحق بالباطل بعد تحريف الكتاب.

---

(١) سنن ابن ماجه، (٢/ ١٣٣٢)، وقال الألباني: حسن.

ومـن أنـواع المجاهـرة ـ وهـو أخطرهـا ـ المجاهـرة بالذنـوب علـى وجـه الاستحلال، مـع المجاهـرة بالإنـكار على الذيـن ينهـون عنهـا، ومعـاداة أوليـاء الله المصلحيـن، ومحاربـة الفضيلـة، والتضييـق علـى أهلهـا، والسـخرية بالقائميـن علـى ديـن الله تعالـى أيـاً كان موقعهـم، والحـطّ مـن قدرهـم، وتسـليط السـفهاء عليهـم، أو تهديدهـم وتحذيرهـم مـن القيـام بمـا أوجبـه الله تعالـى عليهـم ومـا أخـذه منهـم.

وهـذا الصنـف مـن الذنـوب يقـع في المرتبـة الثانيـة مـن مراتـب اسـتحقاق العقوبـة العامـة بعـد الشـرك بـالله تعالـى والصـدّ عـن سـبيله. وقـد تظافـرت النصـوص علـى التحذيـر منـه، قـال الله ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩]. وقـال سـبحانه: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ۝١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١]. فذكـر سـبحانه أصـول الذنـوب الثلاثـة التـي يحـق فيهـا العقـاب العـام: الشـرك بـالله تعالـى، والصـدّ عـن سـبيله، والمجاهـرة بالذنـوب. وقـرن بهـا عقوبتـان: تحريـم الطيبـات في الدنيـا والعـذاب الأليـم في الآخـرة. عـن أم المؤمنيـن أم الحكـم زينـب بنـت جحـش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبـي ﷺ دخـل عليهـا فزعـا مرعوبـا يقـول: «لا إلـه إلا الله، ويـل للعـرب مـن شـر قـد اقتـرب. فُتـح اليـوم مـن ردم يأجـوج ومأجـوج مثـل

هـذه»، وحلّـق بإصبعيـه الإبهـام والتـي تليهـا. فقلـت: يـا رسـول الله، أنهلـك وفينـا الصالحـون؟ قـال: «نعـم، إذا كثـر الخبـث»[1]. وعـن أبـي بكـر الصديـق ﵁ قـال: سـمعت رسـول الله ﷺ: يقـول: «إن النـاس إذا رأوا ظالمـا فلـم يأخـذوا علـى يديـه أوشـك أن يعمّهـم الله بعقـاب»[2].

٩٠. منع الزكاة، وأخذ أموال الناس، وقطع الأرحام ذنوب مؤذنة بالعقوبة.

مـن أسـباب تنـزّل العقوبـات: التعـدي علـى حقـوق النـاس بسـفك دمائهـم المعصومـة، وانتهـاك أعراضهـم، وأخـذ أموالهـم بغيـر حـق. ومـع أن هـذا النـوع داخـل في عمـوم المجاهـرة بالمعاصـي إلا أنّ لـه خطـورة خاصّـة حـذّر منهـا ﷺ بقولـه: «لا تحاسـدوا، ولا تناجشـوا، ولا تباغضـوا، ولا تدابـروا، ولا يبـع بعضكـم علـى بيـع بعـض، وكونـوا عبـاد الله إخوانـا المسـلم أخـو المسـلم، لا يظلمـه ولا يخذلـه، ولا يحقـره التقـوى هاهنـا»، ويشـير إلـى صـدره ثـلاث مـرات، «بحسـب امـرئ مـن الشـر أن يحقـر أخـاه المسـلم، كل المسـلم علـى المسـلم حـرام، دمـه، ومالـه، وعرضـه»[3]. وقـال ﷺ: «فـلا ترجعـن بعـدي كفـارا يضـرب بعضكـم رقـاب بعـض»[4].

---

(١) متفق عليه.

(٢) جامع الترمذي، (٥/ ٢٥٧)، وقال الألباني: صحيح.

(٣) صحيح مسلم، (٤/ ١٩٨٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) متفق عليه.

ويدخل في هذا الصنف من الذنوب المستحقة للعقوبات: الذنوب المالية، وفي مقدمتها منع الحقوق الواجبة، وأعظمها الزكاة، قال ﷺ: «ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا»[1]، ومنها التعدي على الأموال، والتطفيف في الوزن والمكيال قال ﷺ: «ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم»[2]. ولو تأملت لوجدتها عقوبات تناسب تلك الذنوب ومن جنسها، ولا يظلم ربك أحداً.

ومن الذنوب التي اقترنت بتنزّل العقوبات العامّة: قطع الأرحام، وانتشار العقوق، وتضييع الحقوق، وغياب الوفاء بين الناس. وهذا من جنس الذنوب الاجتماعية التي يتعدى ضررها على المجتمع، ويتحول بسببها من الاجتماع والائتلاف والتراحم إلى الافتراق والتباغض والتناحر. ولخطورة هذا الصنف من الذنوب قرنه الله تعالى بالإفساد في الأرض، وأحلّ اللعنة على صاحبه، وعاقبه بطمس البصيرة والطبع على القلب فلا ينتفع بعدها بوسائل الإدراك، ولا بالمواعظ والآيات البينات، قال الله جلّ شأنه: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ** ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣]، فجعل عقوبتهم من جنس ذنبهم، فكما لم تؤثر فيهم وشائج القربى، ولم يفوا بحسن العهد، ولا بشكر الإحسان؛ جعلهم لا

(١) سنن ابن ماجه، (٢/ ١٣٣٢)، وقال الألباني: حسن.

(٢) سنن ابن ماجه، (٢/ ١٣٣٢)، وقال الألباني: حسن.

يسمعون ما ينفعهم، ولا يبصرونه، فلهم آذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعا تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبينات[1].

وقد أخبر النبي ﷺ أنّ هذا الذنب داخل في جنس الذنوب معجلة العقوبة فعن أبي بكرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يُدّخر له في الآخرة: من البغي، وقطيعة الرحم»[2].

٩١. تتنزّل العقوبة جراء الاختلاط بمن استحقها، من غير إنكار أو مفاصلة.

من رحمة النبي ﷺ: تحذيره من الاختلاط بمن استحق العقوبة، والسكنى في ديار الظالمين عمومـًا لئلا يصيب المسلم ما أصابهم، ومن ذلك قوله ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»، قالوا: يا رسول الله، لم؟ ، قال: «لا تُراءى ناراهما»[3]. وقد أخبر ﷺ أنّ العقاب إذا حلّ بأهله فإنه ينزل عليهم وعلى من خالطهم، ثم يبعثون على نياتهم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، يُخسف بأولهم وآخرهم»، قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يُخسف بأوّلهم

(١) تفسير السعدي، (ص: ٧٨٨).

(٢) جامع الترمذي، (٤/ ٦٦٤)، وقال الألباني: صحيح.

(٣) جامع الترمذي عن جرير بن عبد الله، (٤/ ١٥٥)، وقال الألباني: صحيح.

وآخرهم، وفيهم أسواقهم، ومن ليس منهم؟ قال: «يُخسف بأوّلهم وآخرهم، ثم يُبعثون على نياتهم»[1].

وقد أخبر الله تعالى عن نجاة الطائفة المنكرة التي انحازت عن أصحاب السبت بعد نصحهم وإقامة الحجة عليهم، بقوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤- ١٦٥]. ولو تأمّلنا في العقوبات العامة بسبب الاختلاط والتقارب الأممي المعاصر غير المنضبط لوجدنا آثارها المدمرة جليّة واضحة على المسلمين في هذا العصر قبل غيرهم.

ومن فقه الاضطرار للسكنى في ديار الكفار، أو الهجرة للدراسة والعمل ما سبقت الإشارة إليه في قاعدة العقوبة بحصول القحط والجوع، من التفريق بين أحوال الكافرين أنفسهم؛ فينأى بنفسه وأهله عن السكنى في ديار من اجتمع له الظلم المتحصّل بالكفر مع الظلم المتولّد عن الصدّ عن سبيل الله تعالى، أو الظلم المنافي للعدل، وإن اضطر فليكن في ديار من أقام على الكفر الذي لا صدّ فيه عن الحق، ولا حرب على أهله، وانتشر بينهم العدل وحفظ الحقوق ولم تتنكس فطرتهم الإنسانية، ولأجله يسوقُ لهم المنعمُ الكريمُ

(١) صحيح البخاري، (٣/ ٦٥).

الأرزاق، ويفشو في بلادهم الرغد، وصلاح الأرض، ونماء الزرع والضرع، حتى يجعل الله له في بلاد المسلمين فرجاً ومخرجاً؛ فإنّ تأثير المخالطة على الأديان أعظم وأولى بالاعتبار من تأثيرها على الأبدان، وبها يحصل الاندماج المذموم، ويضيع الدين، وتتبدّل الأخلاق والقيم الإسلامية، ويُسكت عن المنكر، وتزول الفوارق والحدود بين المسلمين والكافرين. قال الحقّ جلّ شأنه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]، ونحوها من الآيات التي يصف الله تعالى فيها الكفر بالفسق، والخبَث، والضلال، والعمى؛ تنفيراً للمسلمين من الكفر وأهله.

٩٢. ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مؤذن بنزول العقوبة.

من الذنوب التي حذّر الله تعالى منها ورسوله، وتُعجّل بسببها العقوبة العامّة: عدم إنكار المنكر، وترك الأخذ على يد الظالم، والسكوت عنه، وأشدّ منه: إقرار المنكر، أو المشاركة فيه، والاستمرار في مخالطة أهله، ومعاشرتهم.

وقد أبطل الله تعالى دعاوى السكوت عن المنكر بحجّة عدم التدخل في الحريات الخاصة بقوله جلّ شأنه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥] أي: لا تصيب الظالمين

وحدهم، بل تصيب الجميع لسكوتهم أو إقرارهم. وأخبر النبي ﷺ أنّ الخرق في سفينة المجتمع ضرره على الجميع بلا استثناء. عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا»[1].

ولا عذر ابداً لمن حضر المنكر، أو أبصره، أو خالطه مخالطة اضطرار؛ فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكراً فلينكره بيده، ومن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[2].

والعقوبات العامّة إذا وقعت أصابت الجميع، ولم تستثن أحداً إلا المصلحين الذين أنكروها، وفاصلوها، قال الله تعالى عمن استحق العقوبة: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾[الأعراف: ١٦٥]. ومفاصلة المنكر والانحياز عنه مرحلة إيجابية أخيرة، تتأكّد حين يتعذّر الإنكار، ويتحقّق نزول العقوبة. وهو هدي المرسلين ومن سار على هديهم من المصلحين إلى قيام الساعة، قال

---

(١) صحيح البخاري، (٣/ ١٣٩).

(٢) جامع الترمذي، (٤/ ٤٦٩)، وقال الألباني: صحيح.

الله سبحانه على لسان موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

بل وصل الأمر إلى مفارقة ديار المعذبين بعد هلاكهم؛ لئلا يصيبه ما أصابهم، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحِجر: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم»(١).

وسنّة إنزال العقوبات لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسكوت عنه سنّة قديمة أُهلكت بسببها أمم، وحلّت لأجلها اللعنة وتنزّل الغضب بأفراد ومجتمعات. قال الله جلّ جلاله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة]. عن أبي بكر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه، أوشك أن يعمّهم الله بعقابه»(٢).

(١) متفق عليه.

(٢) سنن ابن ماجه، (٢/ ١٣٢٧)، وقال الألباني: حسن.

٩٣. عقوبات الظالمين لا تستثني المتعاونين، والمخالطين.

إذا كانت العقوبات العامّة لا تحقّ على الظالم نفسه بل تعمّ الساكت عنه، والمقرّ له؛ فإنّ من أنجى المنجيات: البراءة من الظلم وأهله، والاستعاذة من شؤم الذنوب، والعمل الجادّ على تحصيل السلامة بأحد المسارات الثلاث: الكره القلبي، أو الإنكار باللسان، أو التغيير باليد حال القدرة، وما دونها سوى الهلكة واستحقاق العقوبة. عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتُنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع»، قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صلّوا»[1].

كما عدّ الله تعالى الانحيازَ الحسّي والمعنوي عن الظالمين وعملهم، وطلب النجاة من حالهم ومآلهم نعمةً من جُملة النّعم التي يجب شكرها، قال جلّ شأنه لنبيه نوح عليه السلام: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

ولأنّ الله تعالى يُبغض الظالمين والمجاهرين فقد شدّد التحذير من الركون إليهم، أو المجادلة والمخاصمة عنهم، أو تبرير صنيعهم كيلا يصيبه ما أصابهم. قال جّل شأنه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ

---

(١) صحيح مسلم، (٣/ ١٤٨١).

إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٩]

٩٤. الأوبئة العابرة للقارات أثر من آثار التقارب العالمي.

أصبح العالم اليوم قرية واحدة، يتأثر أفرادها وتتداخل أحداثها، وتتفاعل شعوبها وثقافاتها بشكل كبير. وبجانب الإيجابيات المتولّدة من هذا التقارب تظهر الآثار السلبية التي من أخطرها: التقارب في آثار العقوبات والأوبئة الفتّاكة التي تحلّ ببعض الشعوب والدول. وفي أيام قلائل ينتقل من الشرق إلى الغرب - والعكس - وباء فيروسي قاتل لا يُعرف مصدره ولا طرق الوقاية منه ليحصد معه ملايين البشر.

والخطاب الموجه للقرى في القرآن الكريم موجّه كذلك للدول، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، والمعنى: لو أنهم آمنوا بقلوبهم إيمانا صادقا صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرا وباطنا بترك جميع ما حرّم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل

السماء عليهم مدراراً، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كدّ ولا نصب، ولكنّهم لم يؤمنوا ويتقوا ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بالعقوبات والبلايا ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو آخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك عليها من دابة[1]. وتتفاوت درجة التأثر والمعاناة بحسب نسبة المشاركة أو المخالطة أو الإقرار أو السكوت عن ذلك الظلم الأممي.

والمشاركة في الظلم يؤدّي ولا شكّ إلى المشاركة في نتائجه وتبعاته كذلك، وكما أنّ الله جلّ شأنه قد امتن الله على خصوصية بلده الحرام الذي حازه عن الاختلاط بالظالمين، وحرّمه على الكافرين، وحفظه مما أوقع بهم جراء ذنوبهم، فالعكس حاصل حال الكفران والجحود، قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]

٩٥. فساد الماء، والهواء، والغذاء مقترن بالإفساد الذي يحدثه البشر.

بجانب مخاطر الأوبئة الفتاكة والأمراض المعدية مخاطر أخرى للتقارب الأممي تتعلق بممارسات الظلم والهيمنة في الأنظمة، والتشريعات، والقوانين العابرة للقارات، التي أصبحنا نجد آثارها في فساد الماء، والهواء، والغذاء،

---

(١) تفسير السعدي، (ص: ٢٩٨).

إضافة للفساد المتعدّي على أخلاق الشعوب، واقتصادها، وتعليمها، وصحة أفرادها.

وكثير من النكبات، والكوارث، والأوبئة، والقحط الذي يتعرّض له المسلمون اليوم سببه تلك المخالطة الأمية، أو المشاركة، والموافقة للتشريعات والأنظمة الصادرة عنها، مصداقًا لقول الحق جلّ جلاله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١]، أي: استعلن الفساد في البر والبحر أي: فساد معايشهم ونقصها وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها، ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟﴾ أي: ليعلموا أنّه سبحانه المجازي على الأعمال فعجل لهم نموذجا من جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن أعمالهم التي أثّرت لهم من الفساد ما أثّرت، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم. فسبحان من أنعم ببلائه وتفضل بعقوبته وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة[1]. وقوله سبحانه في موضعين من كتابه العزيز ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف: ٥٦]، والمعنى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بعمل المعاصي ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بالطاعات، فإنّ المعاصي تُفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق[2].

(١) تفسير السعدي، (ص: ٦٤٣).

(٢) تفسير السعدي، (ص: ٢٩٢).

وما يراد للقرية الكونية الواحدة فوق ما حدث من تقارب أسواقها وتداخل إعلامها، وتعليمها، واقتصادها، لقد أصبح يراد لها الاتفاق بل الاندماج حتى في ثقافاتها، وتصوراتها، وسياساتها، وقيمها، وأخلاقها، بعيداً عن العوائق الدينية والثقافية بزعمهم التي تفرّق بين البشر.

لقد أصبح الخوف والجوع العالميين سمتان تظهر آثارهما على جيران القرية الكونية كلهم بلا استثناء، مع أنها قد تكون عقوبة متولّدة عن اضطراب الوضع السياسي أو الاقتصادي في دولة استحقت العقوبة بذاتها! وهكذا عدل الله تعالى لا يستثني في استحقاق العقوبة كل من اشترك في أسبابها، وإن كانت دولاً بعيدة.. آمنة مطمئنة يُضرب بها المثل في الأمن ورغد العيش قبل ذلك الاندماج الكوني الأممي، وهو ما أخبرنا عنه الحق جلّ جلاله في معرض التحذير من مصير الأمم السابقة، قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾

[هود: ١٠٠-١٠٣].

ثامناً:

قواعد لمعرفة موانع العقوبات، وطرق الوقاية منها أو التعامل معها حال ظهورها.

٩٦. آية الأنفال جمعت أصول الوقاية العامّة من العقوبات

من رحمة الله تعالى بعباده أنه لا ينزّل عليهم العقاب ابتداء حتى يُقيم عليهم الحُجّة التي ينتفي معها العُذر، ويُظهر لهم العلم الذي ينتفي معه الجهل. ومن رحمته سبحانه في باب تنزّل العقوبات: تحذيره من موارد الهلكة، وأسباب العقوبات، وبيان خطر الذنوب وأثرها على الأفراد والشعوب.

والأصل في باب الوقاية من العقوبات العامّة قوله جلّ جلاله: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، حيث تضمنت الآية ـ على إيجازها ـ ثلاثة أصول مهمة في باب العقوبات والفتن: أصل الوقاية، وهو أهمّها، وأصل المعرفة، وأصل النتائج والآثار.

وقد جاء التأكيد على توقي العقوبات والفتن بلفظ الأمر العام: (واتقوا). الذي يشمل جميع المخاطبين، من الأفراد والمجتمعات، في كل وقت فيشمل: الوقاية العامة قبل نزول العقوبة، والوقاية الخاصة بعد وقوعها، والوقاية عند ظهور الآيات بين يدي وقوعها. كما يتضمن كل سبب تحدث به تلك الوقاية، فيشمل: الوقاية الدينية بتحقيق الإيمان، ونبذ الشرك وظلم العباد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوقاية الدنيوية بسن القوانين

والأنظمة، وتهيئة المرافق الاجتماعية التي تعين على زيادة منسوب الصلاح، وتقليل منسوب الخبث أو إزالته بالكلية.

٩٧. التعرف على مقدمات الخطر مؤذن بتداركه في لحظاته الحرجة.

من رحمة الله تعالى أن جعل المعرفة بمقدمات (المحق) قدراً مشتركًا بين جميع البشر، مهما اختلفت لغاتهم، وتباينت ثقافاتهم؛ فهي من الوضوح بحيث يستدلّ بها الجميع على حقيقة الخطر القادم. ومن رحمته سبحانه أن جعل للآيات الكونية الكبرى مؤشرات وعلامات يستدلّ بها البشر على اقتراب الخطر، ومنها: اضطراب وتفاعل الحيوانات والطير والحيتان.

ومُقدمات (المحق) مؤشرات ودلائل تسبق معاينة العذاب، فإذا وقع لم ينفع معه توبة ولا استغفار، إلا ما حدث لقوم يونس -كما سيأتي- فإنهم نفعهم إيمانهم، واستثناهم ربهم من بين سائر الأمم بعد نزول العذاب بساحتهم[1].

غير أنّ المعرفة بأسباب العقوبات ومؤشراتها لا تكفي لوحدها، ولا تغيّر من الواقع شيئًا ما لم توجد حراكًا صادقًا يستشعر الخطر، ويسعى لتغيير الأحوال المنكرة التي لا ترضي الله تعالى، مع الندم، والاستغفار، والتوبة، والعمل على تخفيف العواقب الكارثية التي لاحت علاماتها، أو التقليل من مداها الزمني والمكاني في اللحظات الفاصلة. قال الله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ

(١) انظر: تفسير الطبري، (١١/ ١٧٠).

جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٤٢-٤٣].

والتعرف على مقدمات العقوبات بنوعيها ـ مقدمات الاستحقاق ومقدمات الإمحاق ـ له طُرق كثيرة متنوعة إلا أنّها تجتمع في طريقين جامعين، أولهما: التدبّر في كلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ عن أثار الذنوب في الأمم والشعوب، والثاني: التعرف على سنن الله تعالى في الكون المسطور والمنظور، وعادته التي لا تتبدّل مع الأمم الظالمة قديماً وحديثاً.

والأخطر من وقوع العقوبة على شدّتها: عدم التعرف على أسبابها، وعدم إدراك مقدّماتها وعلاماتها، بالرغم من ظهورها! والأخطر منه: عدم استشعار أنها ما نزلت إلا عقوبة. وكم من عقوبات عصفت بأمم خاملة كانت قادرة على تفاديها بعدما تعرفت على أسبابها، ووقفت على خيط الانحراف الأول في وقت مبكر، وأدركت طرق الوقاية والعلاج، لكنها تمادت في غيّها حتى أبصرت مؤشرات العقوبة في اختلال امنها، وتبدّل رغدها، وظهور الجوع والخوف بين أفرادها على نحو غير معهود، ثم استمرت في غيها برغم ذلك ولم تُصلح من حالها حتى دخلت في نفق العقوبة المظلم، وحقّ بها ما حقّ بالأمم قبلها. قال الله تعالى محذراً من قسوة القلوب واستحكام الغفلة حتى في اللحظات الفاصلة: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٤ـ٢٥]

٩٨. عدم إقامة الحجة على قوم مانع من تنزّل العقوبة بهم.

لا يعذب الله جل جلاله أحداً إلا بعد الإنذار والإعذار، وإقامة الحجة بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وظاهر الآية الكريمة يؤكد أنّ الله جلّ وعلا لا يُعذب أحداً من خلقه في الدنيا والآخرة حتى يبعث إليه رسولاً يُنذره ويحذّره فيُعصى ذلك الرسول ويُستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار[١]. قال الله عز وجلّ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وجاء هذا المعنى صريحاً في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]. وقوله جلّ جلاله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]، أي: لم تبلغهم الحجة، والمعنى: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسلا تنبههم على حجج الله عليهم، وتنذرهم عذاب الله يوم معادهم إليه، ولم يكن بالذي يأخذهم غَفْلة فيقولوا: «ما جاءنا من بَشِيرٍ ولا نذير»[٢].

وقال سبحانه ممتناً على (أهل الفترة) بعدم إنزال العقوبة، وبإرسال محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن

(١) أضواء البيان، (٣/ ٦٥).
(٢) تفسير الطبري، (١٢/ ١٢٤).

تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

[المائـدة:١٩].

٩٩. وجود النبي في قوم: أمانٌ لهم من نزول العقوبة.

جعـل الله تعالـى وجـود النبي في قـوم أمانـاً لهـم مـن نـزول العقوبـة، وجعـل لهـذه الأمـة أمانـاً ثانيـاً بعـد ذهـاب نبيهـا، ألا وهـو الاسـتغفار، فقـال جـلّ جلالـه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]. وكلا الأمانيـن حظـي بـه صحابـة رسـول الله ﷺ؛ ولـذا كانـوا أسـلم النـاس كلّ وجـه: سـلامة ذواتهم بسـبب الاسـتقامة، والاسـتغفار والإنابة، وسـلامة بلدانهـم مـن العقوبـات والآيـات والفتـن.

وخـروج النبي مغضبـاً، أو إخراجـه مُكرهـاً موجـب للعقوبـة. وقـد ورد هـذا التـلازم في كتـاب الله تعالـى بيـن إخـراج النبـي مـن بقعـة مـن الأرض وبيـن نـزول العقوبـة عليهـا كمـا في قولـه سـبحانه: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦-٧٧] قـال ابـن كثيـر رحمـه الله: نزلـت في كفـار قريـش همّـوا بإخـراج رسـول الله ﷺ مـن بيـن أظهرهم؛ فتوعّدهـم الله بهذه الآيـة، وأنّهـم لـو أخرجـوه لمـا لبثـوا بعـده بمكـة إلا يسـيراً. وكذلـك وقـع فإنّـه لـم يكـن بعـد هجرتـه مـن بيـن أظهرهـم بعدمـا اشـتدّ أذاهـم لـه إلا سـنة ونصـف حتـى جمعهـم الله وإيـاه ببـدر علـى غيـر ميعـاد، فأمكنـه منهـم، وسـلّطه عليهـم، وأظفـره بهـم، فقتـل أشـرافهم وسـبى ذراريهـم، ولـهـذا قـال تعالـى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا

﴿قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾ [الاسراء:٧٧] أي: هكـذا عادتنـا في الذيـن كفـروا برسـلنا وآذوهـم بخـروج الرسـول مـن بيـن أظهرهـم: يأتيهـم العـذاب. ولـولا أنـه ﷺ رسـول الرحمـة، لجاءهـم مـن النقـم في الدنيا ما لا قِبـل لأحـد بهـا، ولهـذا قـال تعالـى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾[١]. قـال ابـن كثيـر رحمـه الله معلّقـاً على إجلاء الأحـزاب عـن المدينـة بمـا أرسـل الله عليهـم مـن الريـح والجنـود: ولـولا أن الله جعـل رسـوله رحمـة للعالميـن لكانـت هـذه الريـح عليهـم أشـدّ مـن الريـح العقيـم التـي أرسـلها على عـاد[٢].

١٠٠. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمان للمجتمع من نزول العقوبة.

ظهـور العلمـاء المصلحيـن في مجتمـع أمـان لـه مـن نـزول العقوبـة؛ فهـم ورثـة الأنبيـاء، والمؤتمنـون علـى أديـان النـاس، والحاجـة إليهـم تفـوق الحاجـة لأطبـاء الأبـدان؛ لأنهـم الأقـدر على إيصـال سفينة المجتمـع إلـى بـرّ الأمـان، وتشـخيص أسـباب الـداء فيـه، والوقايـة منـه قبـل أن تحـق العقوبـة بسـببه.

وأسـلم الشـعوب وأسـعد الـدول تلـك التـي ارتفعـت فيهـا مكانـة العلمـاء المصلحيـن، وعـرف النـاس لهـم فضلهـم، وظهـر قدرهـم، ونفـذت كلمتهـم، وردّد صداهـا الحـكام والأمـراء الصالحـون بقراراتهم وأفعالهم. قـال ﷺ: «إنّ من أمتي قومـاً يُعطـون مثل أجـور أولهـم: يُنكـرون المنكـر»[٣]. قـال شيخ الإسـلام

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٥٤).

(٢) المرجع نفسه، (٣/ ٤٧٧).

(٣) مسند أحمد، (٢٧/ ١٣٧)، وهو في صحيح الجامع، (حديث رقم: ٢٢٢٤).

رحمه الله: من لم يكن في قلبه بغض ما يبغضه الله ورسوله من المنكر الذي حرّمه الله ورسوله من الكفر والفسوق والعصيان؛ لم يكن في قلبه الإيمان الذي أوجبه الله عليه، فإن لم يكن مبغضا لشيء من المحرمات أصلا؛ لم يكن معه إيمان أصلاً[١]. وقال رحمه الله: جِماع الدِّين وجميع الولايات هو أمر ونهي، فالأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا نعت النبي والمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١]. وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره[٢].

والمقابلة في هذا الباب مهمّة؛ لأنها مقتضى عدل الرّب جلّ جلاله؛ فكما أن العقوبة جاءت مقترنة بفعل الفاسقين الظالمين بعدما بلغتهم الحجة وقامت عليهم، فكذلك رفع العقوبة وعدم إيقاعها إنما يكون بوجود العلماء المصلحين، قال الله جلّ جلاله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩] وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] أي لم تصلهم الرسالة ولم تبلغهم الحجة.

وحصول الأمان بوجود المصلحين ورد التأكيد عليه في كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ، قال الله جلّ شأنه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ

(١) مجموع الفتاوى، (٧/ ٤١).

(٢) الحسبة في الإسلام، أو وظيفة الحكومة الإسلامية، (ص: ١١).

﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ، دخل عليها فزعا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث». (متفق عليه). فجعل الأمان بظهور المصلحين، والعقوبة بظهور الخبث، والصالحون تبع، وتلك معادلة المدافعة المجتمعية الحقيقية.

والمصلحون الذين يظهر أثرهم في التعرف على أسباب العقوبات والوقاية منها، ودفع الشرور عن مجتمعهم: هم أولئك الذين جمعوا بين الذكاء القلبي بالزهد والورع والصلاح العلمي بتمسكهم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والصلاح العملي بالاستقامة على الأعمال الصالحة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾ [الأعراف: ١٧٠].

١٠١. واجب العلماء يتأكد عند الأزمات، وعلى عاتقهم حفظ سفينة المجتمع.

العلماء مصابيح الدجى، ومفزع الناس عند الملمات، ووجهتهم لحل المشكلات وتخفيف الأزمات، وهم المسئولون المؤتمنون أمام الله سبحانه على أديان الناس، وهم (الأمّة) بل هم (خير الأمّة) التي أوكل الله تعالى لها مهمّة حفظ سفينة المجتمع بالقيام بأمرين هما شرف هذه الأمّة ومصدر عزّها: تكثير الصلاح، بالأمر بالمعروف، بالنهي عن المنكر وتقليل الخبث.

قال الله جلّ جلاله مبيناً خيرية هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال سبحانه مبيناً خيرية علماء هذه الأمة وشرفهم على سائر أفرادها: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والعلماء هم (البقيّة) المصلحة على إثر القرون الفاضلة التي أنيطت بهم هذه المهمة المجتمعية النبيلة: النهي عن الفساد، قال الله جلّ شأنه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]. قال السعدي رحمه الله: لما ذكر تعالى إهلاك الأمم المكذبة للرسل، وأن أكثرهم منحرفون، حتى أهل الكتب الإلهية، وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب والاضمحلال، ذكر أنه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والرّدى، فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان، ولكنّهم قليلون جداً. وغاية الأمر، أنهم نجوا، باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم، وبكون حجة الله أجراها على أيديهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، ولكن ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف، ولم يبغوا به بدلاً، ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: ظالمين، باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب. وفي هذا حثّ لهذه الأمة أن يكون فيهم بقايا

مصلحون، لما أفسد الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضلّ إلى الهُدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصّرونهم من العمى. وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون، إماما في الدين، إذا جعل عمله خالصا لرب العالمين[1].

والعلماء أصدق الناس وأقدرهم على معرفة أسباب العقوبات، وآثارها، والتعامل معها. وبهم تُناط مدافعة الخبَث، وعليهم تقوم مهمات: التربية، والدعوة، والجهاد، واستصلاح سلوك الأفراد والمؤسسات على السواء.

١٠٢. تحذيرات القرآن تكاد تنحصر فيما وقع فيه علماء السوء وعبّاد الضلال.

تكاد تحذيرات القرآن الكريم تنقسم إلى: تحذيرات مما وقع فيه عُبّاد الضلال، وتحذيرات مما وقع فيه علماء السوء، وهي أشدّها. قال الله جلّ جلاله: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ٦٢-٦٣]. والمعنى: هلا كان ينهاهم الرّبانيون والأحبار عن تعاطي ذلك. والرّبانيون هم: العلماء العُمّال أرباب الولايات عليهم، والأحبار: هم العلماء فقط[2]. قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبّادنا كان فيه شبه من النصارى[3].

(١) تفسير السعدي، (ص: ٣٩١).

(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ١٤٤).

(٣) تفسير ابن كثير، (٤/ ١٣٨).

وتحذير علماء هذه الأمة من الوقوع فيما انحرف فيه علماء اليهود والنصارى كثيراً ما يأتي في سياق الحديث عن تخلّفهم عمّا أوجب الله عليهم من: بيان الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بسبب لهثهم وراء الدنيا، وجمعهم لحطامها. قال الله جلّ جلاله مبينـًا فساد عملهم، ومشبهـًا إياهم بأقبح الحيوانات: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]. قال بن القيم رحمه الله: فشبّه سبحانه من آتاه كتابه، وعلّمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به واتّبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق: بالكلب الذي هو من أخس الحيوانات، وأوضعها قدرا، وأخّسها نفسـًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدّها شَرَهـًا وحرصـًا. ومن حرصه: أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمّم ويستروح، حرصـًا وشرهـًا، ولا يزال يشمّ دُبُره دون سائر أجزاء جسمه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضّه من فرط نهمته. وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا. والجيفُ القذرُة المروِحَةُ أحبّ إليه من اللحم. والعُذرة أحبّ إليه من الحلوى. وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبـًا يتناول معه منها شيئـًا إلّا هرّ عليه وقهره، لحرصه وبخله وشرهه. ومن عجيب أمره وحرصه: أنه إذا رأى ذا هيئة رثّة وثياب دنيّة، وحال زريّة:

نبحه، وحمل عليه، كأنه يتصوّر مشاركته له، ومنازعته في قوته. وإذا رأى ذا هيئة وثياب جميلة ورئاسة: وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه. وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجِلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه: بالكلب في حال لهثه سرّ بديع وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتّباعه هواه: إنما كان لشدّة لهفه على الدنيا - لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة - فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه. واللَّهفُ واللَّهثُ شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى[1].

والفرق بين هذا الصنف من علماء السوء وبين غيرهم يظهر في حياتهم وبعد مماتهم؛ فالعلماء الذين يظهر أثرهم في المسلمين، وتُكتب لهم الإمامة في الدين، ويثبتون في زمن الشدائد: هم الرجالُ الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعُرفوا أمام الناس بالأمانة والعفة، ونصح الخاصّة والعامّة، لا يخشون في الله لومة لائم. أما غيرهم فأعظم مطلوب منهم: أن يُصلحوا أنفسهم لينتقلوا من صفوف الخَبَث، ولا يكثّروا سواده وبخاصة في زمن الفتن وانتفاش الباطل. يدخل في ذلك من كان انحرافه بسبب جهله، أو كان انحرافه بسبب علمه، عياذاً بالله.

---

(١) التفسير القيم، (ص: ٢٩٠).

وأعظم الخيانة أن يأتيك الخوف ممن تحتمي به منه، وأن يصبح السبب المباشر لنزول العقوبة هو ذاته الذي كان يُفترض حصول الأمان بوجوده، وأن يكون مصدر الرحمة واليُسر هو ذاته منبع الشقاء ومرجع الآصار والأغلال في مجتمعه.

١٠٣. أبرز آفات علماء أهل الكتاب: صدّ الناس عن ربهم، وأكل أموالهم.

مسالك الضلال التي سار عليها علماء أهل الكتاب تتلخص في الآفتين الكبيرتين اللتين أوجبتا عليهما اللعنة والغضب: توظيف العلم الذي أكرمهم الله تعالى به لصدّ الناس عن سبيله، وأكلهم الأموال بالباطل، زيادة في الترف، واستكثاراً من الدنيا، وعليهما يقع التحذير في كتاب الله تعالى. قال جلّ شأنه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[آل عمران: ٩٩] قال الطبري رحمه الله: أي: وأنتم شهداء على أنّ الذي تصدّون عنه من السبيل حقٌّ، تعلَمونه وتجدونه في كتبكم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أي: ليس الله بغافل عن أعمالكم التي تعملونها مما لا يرضاه لعباده، وغير ذلك من أعمالكم، حتى يعاجلكم بالعقوبة عليها معجَّلة، أو يؤخر ذلك لكم حتى تلقَوْهُ فيجازيكم عليها[1].

وقال جلّ جلاله محذراً العلماء من توظيف العلم لأكل الأموال بالباطل استكثاراً من الدنيا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا

(١) تفسير الطبري، (٦/ ٥٤).

تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال جلّ شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤]. وفي هذه الآيات تجلية لحقيقة اجتماعية مؤلمة تتمثّل في استغلال الأحبار والرهبان لمكانتهم الدينية في المجتمع من أجل التنافس على الدنيا، حتى فاقوا في جمعها أرباب الدنيا أنفسهم، واحتالوا لها بما لا يقدر عليه غيرهم.

كما ورد التحذير من الآفتين معـًا في سياق واحد في قول الحقّ جلّ جلاله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤]. قال السعدي رحمه الله: هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعُبّاد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدّون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها، ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتا وظلما، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم. ومن أخذِهم لأموال الناس بغير حق، أن يُعطوهم ليُفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله، فهؤلاء الأحبار والرهبان، ليحذر

منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصدّهم الناس عن سبيل الله[1].

١٠٤. تكامل أدوار العلماء والحكام يحقّق الأمن ويحفظ من نزول العقوبات.

من استقرأ تاريخ هذه الأمة وجد أنّ أكثر مجتمعاتها أمناً: تلك التي تكاملت فيها أدوار علمائها وحكّامها؛ قياماً بما استرعاهم الله تعالى إياه، واستخلفهم عليه، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر: العلماء بالتعليم والنصح والنذارة، والحُكّام بإقامة العدل، وتطبيق الحدود، وإكرام الصالحين، وقمع الفاسقين. ولا خوف على مجتمع أن تنزل به العقوبة إذا كان أولئك علماؤه وحكّامه.

وكلّ فرد من أفراد المجتمع إنّما تعظم مسؤوليته بقدر صلاحيته، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته؛ فالأمير الذي على الناس راع عليهم، ومسؤول عنهم. والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم. والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسؤولة عنهم. والعبد راع على مال سيده، وهو مسؤول عنه. فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[2]. وعن معقل بن سيار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجتهد لهم وينصح إلا لم يدخل

(١) تفسير السعدي، (ص: ٣٣٥).

(٢) متفق عليه.

معهم الجنة»[١]. قال عمر بن الخطاب ﵁: يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن[٢].

وتكامل أدوار العلماء والأمراء كفيل بصلاح أحوال المجتمعات والدول. قال ابن عباس ﵄: صنفان من الناس إذا صلحَا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء[٣]. وقوة الأمّة وسلامتها، واستتباب أمنها ورغدها في استقامة علمائها وحكامها، وضعفها بسبب ضعفهم، وعدم استقامتهم لأنهما الأبصر بما يصلح سفينة المجتمع بمقتضى العلم والقدرة، والأقدر على نصح بعضهما البعض والاحتساب عليه؛ فلا يُصلح العلماءَ كالأمراء، كما لا يُصلح الأمراءَ كالعلماء، والاحتسابُ في النصح والإنكار على من قصّر أو فسد منهما مرهون بصدق صاحبه، وإخلاصه، وشفقته، وشجاعته.

وقد صرّح النبي ﷺ بخوفه على أمّته من هذين الصنفين إذا فسدا؛ فعن ثوبان ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»[٤]. وعن عمر ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان»[٥].

---

(١) صحيح مسلم، (١/ ١٢٦).
(٢) تاريخ بغداد، (٤/ ١٠٧).
(٣) كنز العمال، (١٠/ ٨٣).
(٤) جامع الترمذي، (٤/ ٥٠٤)، وقال الألباني: صحيح.
(٥) مسند أحمد، (١/ ٢٨٩)، وقال الألباني: صحيح.

وصلاح العباد والبلاد بالعليم والحفيظ من العلماء، والأمراء، قال الله جلّ شأنه على لسان نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥]، فإذا سكت العليم أو حرّف، أو عمل بخلاف مقتضى العلم الذي ائتمنه الله تعالى إياه، وخان الحفيظ وظلم، وانتهك الأموال، والأعراض، والدماء المعصومة، ولم يُنكر هذا على هذا، ولا هذا على هذا، بل هادنه، وداهنه: أوشك الوباء أن يعمّ، وأن ينتشر الغلاء، ويظهر الجوع، ويضطرب الأمن، ويسود الخوف عياذاً بالله من نقمته. عن حذيفة بن اليمان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكنّ اللهُ أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[1].

وقد نقل المؤرخون في هذا السياق خبر الويلات التي حلّت بهذه الأمة نتيجة ضعف حكامها، أو جهلهم، أو فسقهم، وإقصائهم العلماء الناصحين، واستعانتهم في إدارة شؤون الدولة بأهل البدع أو أهل الفسق، ومن ذلك ما ذكره ابن كثير رحمه الله بقوله: واستقرّ أمر معز الدولة ببغداد، ثم شرع في استعمال السُّعاة ليبلغ أخاه ركن الدولة أخباره، فغوى الناس في ذلك، وعلّموا أبناءهم سعاة، حتى أنّ من الناس من كان يقطع نيفا وثلاثين فرسخاً في يوم واحد، وأعجبه المصارعون والملاكمون، وغيرهم من أرباب هذه الصناعات التي لا ينتفع بها إلا كلّ قليل العقل، فاسد المروءة. وتعلموا

(١) جامع الترمذي، (٤/ ٤٦٨). قال الألباني: حديث حسن.

السباحة ونحوها، وكانت تُضرب الطبول بين يديه، ويتصارع الرجال، والكوسان تُدقّ حول سور المكان الذي هو فيه، وكل ذلك رعونة وقلّة عقل، وسخافة منه. ثم احتاج إلى صرف أموال في أرزاق الجند، فأقطعهم البلاد عِوضاً عن أرزاقهم، فأدّى ذلك إلى خراب البلاد، وترك عمارتها، إلّا الأراضي التي بأيدي أصحاب الجاهات، وفي هذه السنة وقع غلاء شديد ببغداد حتى أكلوا الميتة والسنانير والكلاب، وكان من الناس من يسرق الأولاد فيشويهم ويأكلهم. وكثر الوباء في النّاس حتى كان لا يدفن أحد أحداً بل يُتركون على الطرقات، فيؤكل. وأكل كثير منهم الكلاب، وبيعت الدور والعقار بالخبز، وانتجع الناس إلى البصرة فكان منهم من مات في الطريق، ومنهم من وصل إليها بعد مدة مديدة[1].

١٠٥. الاستغفار أمان من نزول العقوبة.

جعل اللهُ تعالى لهذه الأمّة أمانين من العقوبة: وجود النبي ﷺ فيها، واستغفار أفرادها، فقال جلّ شأنه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]. قال الطبري رحمه الله: أي: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾، يا محمد، وبين أظهرهم مقيم، حتى أُخرجك من بين أظهرهم، لأنّي لا أهلك قرية وفيها نبيها، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾، من ذنوبهم وكفرهم، ولكنهم لا يستغفرون من

(١) البداية والنهاية، (١١/٢١٣).

ذلك، بل هم مصرُّون عليه، فهم للعذاب مستحقون، كما يقال: ما كنت لأحسن إليك وأنت تسيء إليّ[1]. وقال بن كثير رحمه الله: أخبر الله تعالى بأنهم ـ أي: كفار مكة ـ أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يُوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسر سُراتهم. وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبّسون بها من الشرك والفساد. قال قتادة والسدي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عُذّبوا. ولولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يُردّ، ولكن دُفع عنهم بسبب أولئك[2].

وعلى هذا فإنّ من أظهر علامات الأمان من وقوع العذاب على الفرد أو المجتمع: كثرة الاستغفار. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال إبليس: أي ربّ لا أزال أغوي بني آدم، ما دامت أرواحهم في أجسادهم. قال: فقال الرّبّ عزّ وجلّ: «لا أزال أغفر لهم، ما استغفروني»[3]. قال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقي فيكم[4].

---

(١) تفسير الطبري، (١٣/ ٥١٦).

(٢) تفسير ابن كثير، (٩/ ٦٣).

(٣) مسند أحمد، (١٨/ ٢٥٣). وقال الألباني: صحيح.

(٤) تفسير ابن كثير، (٩/ ٦١).

ثم تلا هذه الآية. وعنه ﷺ قال: ما كان الله سبحانه يعذّبُ قومًا وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يُخرجهم[1].

والاستغفار الذي ينفع ويمنع: ما وافق منطوقُه حالَ صاحبه، ولا يكون ذلك إلا بالإقلاع عن الذنب، والندم عمّا سلف منه، مع طلب المغفرة، والعزم على لزوم الطاعة حتى الممات. يشهد لذلك ما أورده ابن جرير رحمه الله في معنى (يَسْتَغْفِرُونَ) بقوله: وقال آخرون: بل معناه: وما كان الله معذبهم وهم يصلُّون. قال الضحاك بن مزاحم: المعنى لم أكن لأعذبكم وفيكم محمد. ثم قال: «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون»، يعني: يؤمنون ويصلّون[2].

ولا يستقيم الاستغفار باللسان مع الإصرار على الذنب كما لا ينفع التلفظ بكلمة التوحيد مع الإقامة على الشرك. وأصدق حالات الإستغفار ما كان عند الاضطرار وحصول الشدّة والفزع، ورؤية المخوف من آيات العذاب في البرّ والبحر، وهي الحال التي يستغفر فيها حتى الملحدون والكفار، ويجيب الله تعالى فيها الدعاء، ويكشف بها البأساء لواسع رحمته. قال جلّ جلاله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ

(١) تفسير الطبري، (١٣/ ٥١٦).

(٢) المرجع نفسه.

يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

١٠٦. بالشُّكر والاستغفار تُحفظ النِّعم، ويحصل الأمن من العذاب.

أكمل أحوال العباد: الجمع بين شكرُ الله سبحانه على النِّعم، واستغفاره من الذنوب. قال شيخ الإسلام رحمه الله: العبد دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى استغفار. وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائما فإنّه لا يزال يتقلّب في نِعم الله وآلائه، ولا يزال محتاجـًا إلى التوبة والاستغفار، ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين يستغفر في جميع الأحوال وقال ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «أيها الناس توبوا إلى ربّكم فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة»، وقال عبد الله بن عمر: كنّا نعدّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: «ربِّ أغفر لي وتُب عليّ إنك أنت التواب الرحيم» مائة مرة. وقال: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم اثنتين وسبعين مرّة». وفي صحيح مسلم أنه قال: «إنّه ليُغان على قلبي وإنّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرة». ولهذا شُرع الاستغفار في خواتيم الأعمال، قال تعالى في آل عمران ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾، قال بعضهم: أحيَوا الليل بالصلاة فلما كان وقت السحر أُمِروا بالاستغفار، وفي الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثـًا وقال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام»، وقال تعالى ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ

ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٨-١٩٩]. وقد أمر الله نبيه بعد أن بلّغ الرسالة، وجاهد في الله حق جهاده، وأتى بما أمر الله به مما لم يصل إليه غيره فقال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر: ١-٣]. ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار كما قال الله تعالى ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ١-٣][1].

وما يقال عن حال اضطرار الفرد يقال عن حال اضطرار الأمم والدول بمجموعها وبخاصة عند رؤية موشرات العذاب.

١٠٧. يقظة القلوب، والانتفاع بوسائل الإدراك مما يقي من نزول العقوبات.

من صفات الله تعالى الحُسنى ـ وكل صفاته حُسنى ـ أنّ رحمته سبقت غضبه، وأنّه عفوّ يحب العفو. ومن آثار رحمته العامّة التي وسعت كلّ شيء أنّ سحائب العذاب مهما تعاظمت وتجمّعت بسبب الكفر فإنها تتوقف إذا اصطدمت بنسائم الرّحمة، فإذا جابهتها رياح الندم والاستغفار فسريعاً ما

(١) التحفة العراقية، ص: ٧٩.

تُقلع وتزول، قال الله جلّ جلاله: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧]

وحديث القرآن الكريم عن رفع العقوبات عن الأفراد والمجتمعات يأتي في سياق يقظة القلوب، والانتفاع بوسائل الإدراك، والرجوع للحق؛ فمن كانت له يقظة قوية حال مشاهدة آيات العذاب، ووصل إلى درجة الانكسار، والتذلّل، والاضطرار فإنّ رحمة الله الواسعة تتداركه، وإن كان كافراً؛ فيجيبه ربّه المنعم الرّحيم، ويسلّمه، مع علمه سبحانه بأنها يقظة وقتية سريعاً ما تزول بعد زوال الخطر. قال جلّ جلاله: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴾ [لقمان:٣٢].

وما أجمل تعقيب الحقّ جلّ جلاله على صنيع من استجار به من اضطراب بحره، وكفر به لِمّا رأى سكون بَرّه! قال سبحانه: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴾ [الإسراء: ٦٦-٦٩]

وقال سبحانه مبيناً أهمية الاعتبار بحال الغابرين وإعمال الحواس حال المرور بآثارهم أو سماع أخبارهم: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٥-٤٦].

وقد ضرب الله تعالى المثل بحال أمّتين من الأمم لبيان أثر يقظة القلوب أو غفلتها في اللحظات الأخيرة من تنزّل العذاب: أمّةٌ رأت العذاب فتبدّل حالها، وانكسرت قلوب أفرادها، ثم استقام أمرها، وهم قوم يونس. وأمّة أخرى أبصَرت نُذرَ الهلاك كذلك، ولكن لم تذهب غشاوتها، ولم تزدها تلك المعرفة انكساراً في القلوب، وانتفاعاً بوسائل الإدراك، بل تمادت في الجحود والاستكبار حتى في لحظات الشدة، وهم قوم هود.

١٠٨. ضرب الله المثل بقوم يونس لمن صلُح حاله برؤية نُذُر العذاب.

قوم يونس هم أهل نينوى من أرض الشام، وقد غادرهم نبيهم يونس عليه الصلاة والسلام مُغضباً بعد أن كذّبوه ولم يؤمنوا برسالته. أما هو عليه الصلاة والسلام فقد ذكر الله تعالى خبره بعد رحيله عن قومه مغاضباً، وكيف عامله ربّه عز وجل بما يليق بالأنبياء الكرام، قال سبحانه: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ

إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

كما أخبرنا سبحانه عما جرى لقوم يونس، وأنه بعد قليل من ذهاب نبيهم نزل بهم العذاب على هيئة سحاب مركوم أظلمت منه الأرض، وأخذ يُقبل على قريتهم، ويتكاثف على وجه لا عهد لهم بمثله. ولسابق علمه سبحانه فقد كان قوم يونس من الأمم القابلة للاستصلاح بسوط الترهيب والتأديب، بعد أن لم ينفع معها صوت الوعظ والترغيب؛ فما هو إلا أن رأوا العذاب يدور على رءوسهم كقطع الليل المُظلم حتى أسرعوا بالتوبة وآمنوا، وتضرّعوا، واستكانوا، وخرجوا إلى البرّيّة يستغيثون ربّهم، ويسألونه سؤال مضطر أن يكشف عنهم العذاب الذي أحاط بهم، ويرفع العقوبة التي أنذرهم بها نبيهم. فلما رأى الله تعالى منهم ذلك سبقت إليهم رحمته فكشف عنهم العذاب، ثم أنزل عليهم بركته في الحياة الدنيا، وأغدق عليهم من صنوف المُتع والرفاه جزاء توبتهم. قال الله جلّ جلاله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

قال الطبري رحمه الله: عن ابن عباس رضي الله عنه: إن العذاب كان هبط على قوم يونس حتى لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل، فلما دعوا كشف الله عنهم. وقال ابن أبي نجيح: لما رأوا العذاب ينزل فرّقوا بين كلّ أنثى وولدها من الناس والأنعام، ثم قاموا جميعا فدعوا الله وأخلصوا إيمانهم فرأوا العذاب يُكشف عنهم. وقال قتادة: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين

حضرها العذاب فتُركت إلا قوم يونس، لمّا فقدوا نبيهم وظنّوا أنّ العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجّوا إلى الله تعالى أربعين ليلة، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلّى عليهم[1].

والصواب أنّ كشف العذاب عنهم شامل للدنيا والآخرة؛ لقوله سبحانه عنهم في موطن آخر: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات١٤٧-١٤٨]، فأطلق عليهم لقب الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي، إضافة لكونه موجباً للأمن والمتاع الدنيوي، والله أعلم.

١٠٩. هلاك قوم عاد سببه الخذلان والغفلة نتيجة، الاستكبار والجحود.

بخلاف قوم يونس الذين رحمهم الله تعالى وكشف عنهم العذاب لمّا آمنوا.. كان قوم هود ممن حقّ عليهم العذاب، مع اتفاقهما في سبب الاستحقاق وهو الكفر بالله تعالى وتكذيب الرّسل، واشتراكهما في طريقة الإهلاك، وهو السحاب المحمّل بالعذاب الأليم.

وقوم هود هم قبيلة عاد، ومنازلهم بالأحقاف ـ وهي: الرمال الكثيرة ـ تمتد في أرض اليمن، بين عُمان وحضرموت. وقد أخبر الله تعالى بأنّ نبيهم توعدهم بالعقاب إن لم يؤمنوا، وهم يعلمون صدقه وأمانته. فلما أبصروا

(١) تفسير الطبري، (١٧٢/١١).

السحاب المحمّل بالعذاب يُقبل على ديارهم، ويدور على رءوسهم كقطع الليل المُظلم استبشروا؛ لقسوة قلوبهم، وفساد عقولهم، ولم يغيّر ذلك من حالهم شيئًا ـ كما حدث مع قوم يونس ـ بل ازدادوا معه كفراً وغروراً. قال الله جلّ جلاله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٤- ٢٦].

قال السعدي رحمه الله: لما رأوا العذاب معترضا كالسحاب قد أقبل على أوديتهم التي تسيل فتسقي نوابتهم ويشربون من آبارها وغدرانها. قالوا مستبشرين: هذا السحاب سيمطرنا. قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾ [الاحقاف: ٢٤] أي: هذا الذي جنيتم به على أنفسكم حيث قلتم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾. فسلطها الله عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧]، ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ قد تلِفَت مواشيهم، وأموالهم، وأنفسهم، ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ بسبب جرمهم وظلمهم. هذا مع أن الله تعالى قد أدرّ عليهم النِعم العظيمة فلم يشكروه ولم يذكروه، ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ أي: مكناهم في الأرض يتناولون طيباتها، ويتمتعون بشهواتها، وعمّرناهم عُمراً يتذكّر فيه من تذكر، ويتعظ فيه المهتدي، كما مكناكم يا هؤلاء

المخاطبون. فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئا، بل غيركم أعظم منكم تمكينا فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئا. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ أي: لا قصور في أسماعهم، ولا أبصارهم، ولا أذهانهم، حتى يُقال: إنهم تركوا الحق جهلاً منهم، وعدم تمكنهم من العلم به، ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنهم يجحدون بآيات الله الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم منه[1].

١١٠. الدعاء من أسباب دفع البلاء.

من شرف الدّعاء أنّ الله تعالى جعله سبباً لجلب العطاء، ودفع البلاء. عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يردّ القضاء إلا الدّعاء»[2]. وكلّ من القضاء والدعاء داخل في علم الله تعالى ومشيئته، وليس في معنى ردّ القضاء بالدعاء أن يحدث في مُلك الله تعالى حادثٌ يناقض حُكمه، وأمره، وعلمه السابق المكتوب في اللوح المحفوظ؛ فالله جلّ جلاله عالم بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهو يعلم ما كتبه لعبده وما يزيده إياه بعد ذلك والملائكة لا علم لهم إلا ما علّمهم الله، والله يعلم الأشياء

(١) تفسير السعدي، (ص: ٧٨٢).

(٢) سنن الترمذي، (٤/ ٤٤٨). وقال الألباني: حسن.

قبل كونها وبعد كونها؛ ولهذا قال العلماء: إن المحو والإثبات في صُحف الملائكة، وأمّا علمُ الله سبحانه فلا يختلف، ولهذا محو فيه ولا إثبات[1].

والدعاء سلاح المؤمن لا يتركه على أي حال، ولا يخيب صاحبه أبداً؛ فإن كان مما يردّ القضاء فقد تحقق المراد، وإن لم يكن مما يردّ القضاء ففائدته ظاهرة في الثواب الذي يحصّله صاحبه؛ لأن الدعاء عبادة. عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء[2]

ومما ورد الدعاء بطلبه: العافية؛ فقد كان النبي ﷺ يسأل ربّه إياها صباح مساء، وقبيل نومه، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات، حين يمسي، وحين يصبح: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية، في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي». قال وكيع يعني: الخسف[3].

والعافية في الدنيا: دفعُ الله تعالى عن العبد جميع الأسقام والبلايا، وما يكرهه ويشينه، ويضرّه. والعافية في الآخرة: دفع الله تعالى عن العبد جميع أهوال الآخرة وأفزاعها، ولا يخرج مطلوب العبد عنهما.

(١) مجموع الفتاوى، (١٤/ ٤٩١).
(٢) جامع الترمذي، (٥/ ٥٥٢) وقال الألباني: حسن لغيره؛ لضعف أحد رواته.
(٣) سنن أبي داود، (٤/ ٣١٩). قال الألباني: صحيح.

ومما ورد الدعاء بدفعه: الأسقام، وسائر الأوبئة والأمراض؛ فعن أنس ﵁ أنّ النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من البرص، والجنون، والجذام، ومن سيئ الأسقام»[1]. وأرشد ﷺ إلى وصية عملية مع الدعاء إذا انتشر المرض، وتحوّل إلى وباء؛ فعن أسامة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الطاعون رجز سُلّط على من كان قبلكم، أو على بني إسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها»[2].

والدعاء مستجاب سواء أكان للعبد أو عليه إذا وافق ساعة إجابة أو كان صاحبه مُستجاب الدعوة؛ ولذا ورد النهي عن أن يدعو العبد على نفسه وعلى أهله أو على ماله، وعن أنس ﵁ أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفَت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟»، قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجّله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! لا تُطيقه - أو لا تستطيعه - أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» قال: فدعا الله له، فشفاه[3].

١١١. وجود الضعفاء من المسلمين أمان من نزول العقوبة أو مخفّف لها.

قضى الله تعال بأن يكون بقاء الضعفاء من المسلمين في أرضٍ علامةً على تحقيق النصر، وإغداق الأرزاق بأهلها، وإن كانوا كافرين، قال الله جلّ جلاله

---

(١) سنن أبي داود، (٢/ ٩٣). قال الألباني: صحيح.

(٢) صحيح مسلم، (٤/ ١٧٣٨).

(٣) صحيح مسلم، (٤/ ٢٠٦٨).

مبينـًا سبب حجب العـذاب عـن أهـل مكـة: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٥]. قـال ابـن كثيـر رحمـه الله: لـولا مـا كان بيـن أظهرهـم مـن المسـتضعفين مـن المؤمنيـن المسـتغفرين لوقـع بهـم البأس الـذي لا يُـردّ، ولكـن دُفـع عنهـم بسـبب أولئـك. عـن سـعد ﵁ قـال: قـال النبـي ﷺ: «هـل تُنصـرون وتُرزقـون إلا بضعفائكـم»[(١)].

ومعنـى قولـه جـلّ جلالـه: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ ﴾ أي: تميّـزوا، وقيـل: لـو تفرّقـوا، وقيـل: لـو زال المؤمنـون مـن بيـن أظهـر الكفـار لعُـذّب الكفّـار، ولكـن الله يدفـع بالمؤمنيـن عـن الكفـار[(٢)]. وأولـى منـه الدفـع عـن الظالميـن مـن المسـلمين بمـا يكـون بينهـم مـن الضعفـاء المسـتغفرين.

وإذا كان النصـر والـرزق مكفـولاً بوجـود الضعفـاء؛ فكذلـك الخـذلان، والهزيمـة، وظهـور الفقـر، والقحـط، وانقطـاع الأرزاق، مـردّه لأسـباب، أظهرهـا: قهـر الضعفـاء أو طردهـم وإخراجهـم أو التضييـق عليهـم حتـى يخرجـوا بأنفسـهم.

وهـذه السُـنّة المضطـردة وهـي لا تتخلـف بيـن يـدي إنـزال العقوبـات بالأمـم الظالمـة قديمـًا وحديثـًا، وهـي أثـر مـن آثـار رحمـة الله تعالـى، وحكمتـه، وقهـره لعبـاده جـلّ جلالـه؛ يـؤوي بهـا المسـتضعفين مـن عبـاده، ويزيحهـم مـن أرض العـذاب، ويعمـي بهـا بصائـر المجرميـن الذيـن حـقّ عليهـم العـذاب، وكانـت عادتـه بنصرهـم وإغـداق الـرزق عليهـم لوجـود أولئـك الضعفـاء بيـن أظهرهـم؛

(١) **صحيح البخاري، (٤/ ٣٧).**

(٢) **تفسير القرطبي، (١٦/ ٢٨٦).**

فيدفعهم دفعاً إلى (تطهير) أرضهم من ضعفاء المسلمين ـ بحد زعمهم ـ، وتحفيزهم لإشاعة ذلك بين أفرادهم حتى لا يبقى بين أظهرهم كبير سنّ، ولا فقير، ولا طفل ولا امرأة، ولا مستضعف إلا أخرجوه عن أرضهم، وقهروه وضيّقوا عليه حتى (يزول) بنفسه، فإن لم يفعل أجبروه على ذلك!!

ومنشأ العقوبة التي تحلّ بهؤلاء المجرمين تظهر في الوجهين معاً: خلوّ ساحة المعذّبين من الضعفاء الذين يرحمهم الله تعالى ويرحم بهم، وظهور الظلم، والكبر، والاستعلاء الذي لا يحبّه سبحانه، ويعجّل العقوبة بسببه. والتلازم بين هذين السببين قُبيل نزول العذاب ظاهر في كتاب الله تعالى، قال جلّ جلاله عن قوم نوح: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٧-٢٨]. وقال سبحانه على لسان ملائكته الكرام الموكلين بإهلاك قوم لوط: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات: ٣٢-٣٧]، وقولهم بعد ذلك: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨١- ٨٣]. وقال

سبحانه قبيل إهلاك فرعون وقومه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]، والآيات القرآنية، والشواهد الماضية والمعاصرة في هذا المعنى كثيرة متظافرة.

ومن بين الضعفاء الذين يُنجيهم الله تعالى ويُخرجهم من أرض العذاب: كلّ ذي روح عدا الثقلين. حتى إنّك لتجد الطير في سمائها، والنمل في جحورها، والحيوانات في برّها، والحيتان في مائها تضطرب وتهيج على غير عادتها، وربما كسرت أقفاصها، وولّت هائمة على وجهها لا ترجو إلا السلامة لنفسها، كما سبق بيانه في مقدمات المحق ونزول العذاب[1].

---

(١) أفردت لهذه الظاهرة العجيبة مقالًا قديمـاً نُشر في عدد من المجلات المحلية والخارجية، بعنوان: (أسماك ترصد الزلازل). وتمّ تقدير ذلك ما بين عشر إلى عشرين دقيقة قبل حلول العذاب، وهو وقت كاف للخروج من البقعة المكانية التي استحقّت العقوبة. وجمعت لها من شواهد ذلك الكثير بحمد الله تعالى. ومن ذلك ما أخبرني به من زار إندونيسيا بعد الطوفان العظيم (التسونامي) الذي طاف بهم، وأغرق أرضهم، نقلاً عن أحد الناجين من المزارعين في قريته الذي أخبره عن سبب النجاة بقوله: «قبل أن يضرب الطوفان الهائل بعشر دقائق تقريبـاً وجدنا دواب الأرض، والحيوانات من كل صنف تضطرب، وتخرج مذعورة. الطيور تصفّق بأجنحتها والحيات تخرج من جحورها، والبهائم تركض وتهرع بشدة، فأدركنا أن ثمّة خطب عظيم، فانقسمنا قسمين: قسم اتجه إلى منزله وأغلق عليه بابه، ولم يسلم منهم أحد، وقسم أخذ يركض مع الحيوانات، يتجه معها أينما اتجهت، وكنت من هؤلاء، حيث ركضنا خلفها إلى الأماكن المرتفعة. وما إن استقر بنا المقام في أعلى مكان استطعنا الوصول إليه حتى دهمنا الهول العظيم، والموج الهائل الذي غطّى كل شيء في الأسفل، واقترب منّا المد إلى درجة أيقنّا فيها بالهلاك لولا رحمة الله تعالى.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- ابن الأثير، أبو الحسن علي الشيباني. (الكامل في التاريخ). تحقيق: عبد الله القاضي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

٢- البخاري: محمد بن إسماعيل. (الجامع الصحيح). الرياض: دار اليمامة، ط١، ١٤١٧هـ.

٣- البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري. (الأدب المفرد). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ

٤- البزار، أبو بكر أحمد بن عبد الخالق. (مسند البحر الزخار). تحقيق: محفوظ الرحمن، بيروت: مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٩هـ.

٥- البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. (السنن الكبرى). الهند: دائرة المعارف النظامية، الهند، ط٤، ١٤٣٤هـ.

٦- الترمذي: محمد بن عيسى بن سوره. (سنن الترمذي). صححه: محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١٧هـ.

٧- ابن تيمية: أحمد بن عبد السلام بن تيمية. (مجموع الفتاوى). دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ.

٨- ابن داود، محمد بن سرايا، (سلاح المؤمن في الدعاء والذكر). تحقيق: محيي الدين مستو. دار ابن كثير، دمشق: بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

٩- الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد. (النهاية في غريب الحديث والأثر). تحقيق: طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٠- ابن الجوزي: جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي. (المنتظم في تاريخ الأمم والملوك)، تحقيق: محمد عطا، مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية، بيروت، ط١. ١٤١٢هـ-١٩٩٢م

١١- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. (المستدرك على الصحيحين). تحقيق: مصطفى عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ.

١٢- ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي. (صحيح بن حبان)، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط١، ١٣٩٠ هـ.

١٣- ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني. (فتح الباري شرح صحيح البخاري). بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٠ هـ.

١٤- ابن حنبل: أحمد بن حنبل. (المسند). المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ.

١٥- الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله. (معجم البلدان). دار الفكر، بيروت.

١٦- الخراساني، سعيد بن منصور. (سنن سعيد بن منصور). تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الهند: الدار السلفية، ١٤٠٣هـ.

١٧- أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني. (سنن أبي داود). صححه: الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٨- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الشافعي. (تفسير الكبير أو مفاتيح الغيب). دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٩- ابن سعد: محمد بن سعد البصري. (الطبقات الكبرى). دار صادر، بيروت، ١٣٨٨ هـ.

٢٠- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. (تيسير الكريم الرحمن، في تفسير كلام المنّان). تحقيق: ابن عثيمين، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ.

٢١- السفاريني، أبو العون محمد بن سالم الحنبلي. (لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية). مؤسسة الخافقين: دمشق. ٢. ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٢٢- السيوطي: عبد الرحمن بن الكمال. (الدر المنثور). دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

٢٣- السيوطي: عبد الرحمن بن الكمال. (الجامع الصغير من حديث البشير النذير). تصحيح: الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٨هـ.

٢٤- الصنعاني: عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني. (المصنف). تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٢٥- الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد. (المعجم الكبير). تحقيق: حمدي عبد المجيد، العراق: إحياء التراث الإسلامي، ١٣٩٧هـ.

٢٦- الطبري: محمد بن جرير الطبري. (جامع البيان عن تأويل آي القرآن). تحقيق: محمد شاكر وآخرون، القاهرة: مكتبة ابن تيمية.

٢٧- ابـن فـارس، أبـو الحسـين أحمـد بـن زكريـا. (معجـم مقاييـس اللغـة). تحقيـق: عبـد السـلام هـارون، بيـروت، لبنـان: دار الجيـل، ١٤٢٠هـ.

٢٨- محمـد الأميـن الجكنـي. (أضـواء البيـان في إيضـاح القـرآن بالقـرآن). تحقيـق: مكتـب البحـوث والدراسـات، بيـروت: دار الفكـر، ١٤١٥هـ.

٢٩- القرطبـي: محمـد بـن أحمـد القرطبـي. (الجامـع لأحـكام القـرآن). بيـروت: دار الفكـر، ١٤١٤هـ.

٣٠- ابـن قيـم الجوزيـة: محمـد بـن أبـي بكـر. (زاد المعاد في هـدي خيـر العباد). تحقيـق شـعيب الأرنـاؤوط وعبـد القـادر الأرنـاؤوط، مؤسسـة الرسـالة، بيروت، ط١٣، ١٤٠٦ هـ.

٣١- ابـن كثير، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر. (تفسير القرآن العظيم) القاهرة: دار الحديث، ١٤١٦هـ.

٣٢- ابـن كثيـر، الحافـظ أبـي الفـداء إسـماعيل بـن عمـر. (البدايـة والنهايـة)، مكتبـة المعـارف، بيـروت.

٣٣- الكوفي، أبـو بكـر عبـد الله بن أبي شيبة. (المصنف في الأحاديث والآثار). تحقيـق: كمال الحوت، مكتبة الرشـد، الريـاض، ط١، ١٤٠٩هـ

٣٤- ابـن ماجـه: محمـد بـن يزيـد القزوينـي. (سـنن ابـن ماجـه). صححـه: محمـد ناصـر الديـن الألبـاني، بيـروت: المكتـب الإسـلامي، ١٤٠٧هـ.

٣٥- مسـلم، مسـلم بـن الحجـاج القشـيري. (صحيـح مسـلم). تحقيـق: محمـد فـؤاد عبـد الباقـي، الريـاض: إدارات البحـوث العلميـة والإفتـاء والدعـوة والإرشـاد، ١٤٠٠هـ.

٣٦- ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري. (لسان العرب). بيروت: دار صادر.

٣٧- النسائي: محي الدين يحيى بن شرف النسائي. (سنن النسائي). اليمامة للطباعة والنشر، ١٤١٧هـ.

٣٨- ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري. (السيرة النبوية). تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٣٩- الهروي، محمد الأزهري، أبو منصور. (تهذيب اللغة). تحقيق: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي: بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م

٤٠- الهندي، علاء الدين علي المتقي. (كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال). تحقيق: محمود عمر الدمياطي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ.

٤١- الهيثمي، علي بن أبي بكر. (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد). دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ

كتب مطبوعة للمؤلف

١- الشيشان، صقور الجبال البيضاء.

٢- أوراق الحب العامر.

٣- قراءات دعوية في كتب الإدارة المعرّبة الغربية.

٤- السراج المنير: سلسلة قصصية في السيرة النبوية المكيّة.

٥- المدينة المحاصرة: فنّ إدارة الأزمات في ضوء غزوة الأحزاب.

٦- أحقًا هذه الجنة؟

٧- زاد الجندي المسلم.

٨- مقامات الإيمان.

٩- الرحلة الأخيرة: مشاهد من أحوال الأشقياء والسعداء يوم القيامة.

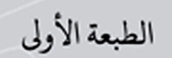
١٠- العقوبات والآيات والسنن. (بين يديك)

الكون من حولنا شاهد على حكمة الله جلّ جلاله، وعظمته؛ فقد أوجده وفق نظام دقيق لا يتغير، وسُنن ثابتة لا تتبدّل، تحدّد بمجموعها أسباب البقاء أو الفناء، والقوة أو الضعف للجنس البشري. والتعرف على هذه السُنن، والآيات، والعقوبات المرتبطة بها من أشرف العلوم، وأكثرها إلحاحاً في هذا العصر، وهو فنّ أصيل منثور في كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ، قلما يُتطرّق إليه بشموله.

وهذا الكتاب إضافة مهمة للمكتبة الإسلامية، ومحاولة جادّة لجمع شتات هذا الفن العزيز في هيئة قواعد تعرّف بالسُنن الإلهية التي تنظّم حركة الكون والأفراد، وتفسّر اضطراب الآيات الكونيّة، وتفشّي الأمراض النفسيّة، والتقلّبات الاجتماعية عبر التاريخ، وتقدّم توصيات لتحديد أسبابها، وآثارها، وطرق استشرافها والوقاية منها.







الطبعة الأولى 1444 - 2022